التعاون بين الإسلام والمسيحية

فكرتُ ملياً فى النزاع القديم المطرد بين النصرانية والإسلام ..

ووددت لو استقرت العلاقة بين الدينين على دعائم إنسانية أرقى وأرق .

وتساءلت : أما من خطة فاصدة راشدة تتيح لأتباعهما أن يعيشوا أصفياء أتقياء وإن اختلفت عقائدهما ؟

أما من خطة قاصدة راشدة تتيح لمبادئهما أن تلتقى فى ميادين الحياة دون صدام يقدح الشرر ، ويلقح الحروب ؟

أما من خطة قاصدة راشدة تنصف رسالات السماء وتشرف الضمير الدينى ، وتنفث فى روع الناس أن الذين ينسبون أنفسهم إلى اللّه أصحاب سلوك يستحق الاحترام والإعجاب ؟

لستُ جانحاً إلى الخيال فى هذا التمنى ، ولا بعيداً عن الواقع .

أنا أعلم أنَّ هناك نوعاً من التهجم للدين كله يجمع بين أقوام بعضهم مسلمون وبعضهم نصارى - حسب تسمياتهم الموروثة - ويجعلهم مواطنين معتدلين .

لكن هذا التجمع فى ظلال الانحلال وقلة الاكتراث بحقيقة الإيمان لا قيمة له عندى .

فالفراغ النفسى الذى يضم فى دائرته ألوف الناس ويشغلهم بأمر القوت وحده ، ويجعل ما عدا ذلك نافلة ساقطة الاعتبار - هذا الفراغ شر ، يساوى أو يربو على شرور التعصب الأعمى .

بل قد يكون التمسك الحاد بدين ما أجدى من الانصراف المطلق عن الأديان كلها .

إننى أبتغى خطة تجمع - على السماحة والمياسرة - بين مسلم يرى أنه موصول باللّه على أهدى طريق ، ونصرانى يرى أنه يعرف الحق الذى جهله الآخرون ...

ومع ذلك البُعد فى وجهات النظر فكلاهما ينأى فى معاشرته للآخر عن الغدر والختل والبغضاء والشحناء .

بل كلاهما يقيم معاملته لصاحبه على الود والعدل ، ويتمنى له التوفيق والخير ... !

وفى المعاملات العامة بين الناس كثيراً ما نفصل بين عواطفنا بإزاء شخص معيَّن وبين حكمنا على أفكاره ومعارفه ...

فنقول : فلان يعتقد كذا وكذا من الأخطاء الغريبة ، ومع ذلك لا نبالى بما يسكن ذهنه من أغلاط ونلتفت إلى السلوك العام فحسب ، ثم نبنى عليه شتَّى الصلات ...

إننى مستعد لمصادقة امرئٍ يؤمن بأنَّ الأرض محمولة على قرن ثور !! .

ومستعد لموادة امرئٍ يوقن بقداسة العجول ، ونسبها الموهوم إلى الآلهة .

بل إننى أعتذر لشرود كثير من أصحاب العقائد الباطلة ، وأقول فى نفسى :

وراثات كبلت عقولهم ، وقيَّدت مشاعرهم ، وما يمكن أن تنفك قيودها ولا أن تتقطع حبالها إلا على أزمنة متراخية يسودها السلام ، ويخفى منها العناد ، وتنفصل فيها العقائد عن الملابسات التى تغرى بالركون إلى جهل أو التنكر لعلم .

وأنا رجل مسلم وثيق الصلة بدينى ، راسخ القدم فيه ، عنيف الغضب لما يوجَّه إليه من إساءات ، مطمئن القلب إلى أنَّ غيره من الديانات قد اعوجت به السُّبُل ، وأفلت منه الحق .

ومع إيمانى التام بأنَّ النصرانية - مثلاً - تنطوى على أخطاء جسام فى تصورها لله ، وإنفاذها لحكمه ، وفقهها لأمره ...مع ذلك فلست أرى أبداً أنَّ طريق المعايشة السلمية ضيقة بأتباع الدينين .

ولا أستغرب أبداً أن تقوم مودَّة صافية بين رجلين يؤمن أحدهما بأنَّ الله واحد ، ويؤمن الآخر بأنَّ الله ثلاثة ...

إنَّ الخلاف العقلي فى مثل هذه الشئون لن تفصل فيه محكمة تؤلَّف اليوم أو غداً

إنه خلاف سيبقى حتى يلقى الناس ربهم .

وعندما تتلاقى كل هاتيك الفرق المتنازعة ، وتمثل بين يدى الله ، يومئذ - فحسب - يعرف المخطىء سر أنحرافه : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (١)

أجل .. وسوف يسمع الله هذا الاختصام ، وسوف تترك الفرصة كاملة ليدلى كل فريق بما عنده .. لمَ ؟؟ .

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢) .

* * *

على أنَّ ذلك السلام المنشود بين أهل الأديان يتطلب أموراً لا بد من إيجادها واستدامتها ....

لعل فى أولها الاعتراف المتبادل بحق الحياة الشريفة لأصحاب العقائد المتباينة ..

ومنح كل دين الحرية المعقولة ليبين عن نفسه ويذود عن معناه .

وتأمين الأتباع على أموالهم وأعراضهم ودمائهم فلا يضارون فى شىء منها لإيثارهم دينا على غيره .

والجور على هذه المعانى وقع ولا يزال يقع بين الناس .

لا بين أشباع الديانات المختلفة فحسب ، بل بين رجال الدين الواحد عندما تضطرب أفهامهم فى تفسير أصوله أو فروعه !!

ومرجع ذلك - فى أغلب الأحيان - ليس المبالغة فى إرضاء الله تعالى كما يعتقد الجائرون المتعصبون - بل هو ضيق العقل ، وإستحكام الهوى وقدرة النفس الإنسانية - للأسف الشديد - على إشباع شهواتها وارتكاب مظالمها ، وكأنها تتقرب إلى ربها ، وتقيم حقوقه بدقة وحماس . ! !

---

(١) الزمر : ٣٠ - ٣١ (٢) النحل : ٣٩

ولنعد إلى الماضى البعيد نستبين أحداثه ! وكم من مشابهة غريبة بينه وبين الحاضر القريب . ؟

لقد ظهرت المسيحية قبل الإسلام بنحو ستة قرون ، وقامت باسمها حكومات مرهوبة الجانب .

وافترق المسيحيون فى فهمهم لطبيعة دينهم فرقاً كبيرة ، تحول النزاع بينها إلى صراع تُسفك فيه الدماء .

والاختلاف طبيعة البَشر . والنزاع الداخلى بين أهل ملّة ما لا يعنينى كثيراً، وإنما يعنينى هنا أنَّ النصرانية استقبلت الإسلام بصدر ضيق .

وأنها ما إن رأت الجماهير تُقبل عليه حتى قررت اعتراض مسيره بالقوة ، وإسكات دُعاته الذين يشرحون حقيقته . ويشرحون صدور الناس باعتناقه .

لقد نظر الرومان - وهم فى ذلك العصر أصحاب السلطان بأسم النصرانية .

نظروا إلى الإسلام لا على أنه دين يعاون فى هداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور . بل على أنه منافس محذور النجاح .

كما ينظر التاجر القديم إلى مؤسسة جديدة مزوَّدة بأسباب النهوض والنماء . فهو يرى امتدادها والإقبال عليها خطراً على كيانه وبقائه .

والنصرانية من هذه الزواية معذورة فى كراهيتها للإسلام .

بَيْدَ أننا نتساءل : أكل جديد فى ميدان العلم والمال والرأى والفقه ينبغى أن يُصد عنه ويُستباح حماه لأنَّ هناك من يكرهه ومَن يضيق به ؟ !! كلا .

فليترك المجال فسيحا للتنافس المشروع ، ولتُترك العقائد المختلفة تستمد حياتها وقداستها من سلامة مبادئها ومدى استجابة المؤمنين لها ، وبقائهم عليها ، دون ضغط أو قسر !!

لكن رجال المسيحية - كما سنرى من استعراض التاريخ فى الماضى والحاضر - يأبون على الإسلام أن يحيا ، ويرفضون فى بغضاء عميقة أن يرتفع له لواء .

وخبثهم الاستعمارى فى العصر تجديد لسيرتهم الأولى أيام رسول ﷺ وصحابته . لم تتغير فيه إلا الوسائل .

أما الغايات والنيّات فهى هى حذوك النعل بالنعل .

وكان من المستطاع لو صلحت المقاصد وزكت الأهداف أن يقوم تصالح على ترك العناصر المشتركة بين الدينين تسير طليقة أو - على الأصح - تسير مدفوعة بإخلاص الفريقين لها

ثم ينفرد كل بما اختص به يدعو إليه على حدة دون اشتباك دام مع الآخرين .

فمثلاً يجب أن ندعم جميعاً عقيدة الإيمان باللّه واليوم الآخر . وأن نحارب جميعاً دعوة الإلحاد والفساد .

ثم من حقنا - نحن المسلمين - بعد ذلك أن نُفهم الجميع بأن اللّه واحد لا ولد له ولا والدة ، وأن تتاح لنا فرص الدعاية لما ندين به .

على أن تتاح هذه الفرص نفسها لمن يرون أن اللّه مكوّن من ثلاثة أقانيم كما تتكوّن الأصبع من ثلاث عقد . كل واحدة منها إله . وكلها كذلك إله .

ولا معنى لاستخدام السلاح فى الاستدلال على شىء من هذا الكلام أو فى الإقناع به ، ولا لإقحام الدولة فى فتنة المؤمنين عما استراحت إليه ضمائرهم من هذه الخلافات والمذاهب .

وما يمكن التعاون عليه بإخلاص وصدق كثير .

وما وقع من خلاف يعز على التفاهم ، فلنفوّض فيه الأمر إلى اللّه .

ويجب ألا يكون ذريعة عدوان أو تحاقد أو بغى .

لقد استقبلت بهذا التفكير الدعوة إلى عقد مؤتمر مسيحى إسلامى .

وكان - من حسن الحظ - أن حضرتُ جلساته التى انعقدت فى الإسكندرية من بضع سنين .

وأحسب أنَّ ألوف العقلاء يسرهم الوفاق بين طوائف البَشر .

غير أنَّ الحوادث الرهيبة التى سبقت ولحقت هذا المؤتمر ، وسير المناقشات فيه يجعلنى أتشاءم من مستقبل العلاقة بين الدينين ، ويجعلنى أحاذر من عودة الأمور إلى مجراها المؤسف القديم ...

ولدت فكرة « التعاون المسيحى الإسلامى » فى ظروف كئيبة .

إذ أنَّ أبناء الإسلام كانوا يتلوون من الألم والأذى بعد الضربة الشائنة الموجعة التى نزلت بهم فى فلسطين ..

ألم تتآمر الدول النصرانية - كبراها وصغراها - على طرد العرب من ديارهم وأموالهم ، وتتفق - فى صفاقة نادرة - على توريث اليهود أرض الأحياء المقهورين ثم تنتصب أعظم الأمم المسيحية على ظهر الأرض - وهى « أمريكا » و « انجلترا » و « فرنسا » - لإقرار ذلك الجور بقوة السلاح وإعلان الاستمساك به وحمايته ؟ !

ولو كان ذلك العمل غفوة ضمير نام ثم استيقظ ، أو زلّة قدم سقطت ثم تابت لقبلنا المعذرة .

فكيف وهذا العدوان الفاحش سبقه ولحقه التحدى والإصرار ؟

وبعد تسع سنين من وقوعه تستأنف إنجلترا وفرنسا - ومعهما اليهود - الهجوم على مصر نفسها لإذلالها وإخماد أنفاسها ..

فإذا أنجاها القَدَر الأعلى تدخلت أمريكا لتزيد إسرائيل قوة على قوة .

ولتفك الحصار الضئيل المفروض عليها ، فترسل أسطولها الضخم ليجعل الملاحة فى خليج العقبة ميسَّر لليهود .

وأمريكا بهذا العمل تُشبع أحقاداً صليبية دفينة ، وتفتح ثغرة فى الكيان الإسلامى ، إن استترت اليوم فستنكشف غداً .

إذ هى تؤمل فى إذلال المسلمين وتهديد مواطنهم فى تلك البقاع الحساسة .

وإليك نُبذاً من بيان نشرته الهيئة العربية العليا لفلسطين يوضح هذه الحقيقة :

إن المطامع الاستعمارية فى خليج العقبة ليست حديثة ، بل هى قديمة العهد من زمن الحروب الصليبية .

فمن خليج العقبة قامت حملة « البرنس أرناط » - عام ٥٧٨ هجرية - فهاجمت شواطىء البحر الأحمر على الجانبين الآسيوى والإفريقى ، ونزلت فى أرض الحجاز حتى كادت تطرق أبواب المدينة المنوّرة لولا وصول حملة التأديب المصرية بقيادة الأمير « حسام الدين لؤلؤ » قائد أسطول مصر فى عهد صلاح الدين ، فقضى على حملة أرناط وأغرق أسطولها .

ولا نعدو الحق إذا قلنا : إنّ كثيراً من ساسة العرب وقادته المتأثرين بالنزعات التبشيرية ما زالت تسيطر على نفوسهم وتصرفاتهم روح العصبية المعادية للإسلام والعروبة .

وفى شأن خليج العقبة وتمجيد حملة « البرنس أرناط » ننقل هنا ما قاله الأب لامانس اليسوعى : « لفت خليج القبة وموقع أيلة أنظار البطل الصليبى أرناط ، ولمس أهميته فعمل على احتلال تلك البقعة ، ونشر الرعب فيها بأسطوله .

ولا شك أنه ضرب مثلاً بإقدامه وجرأته لجمع كبير من أبطال الاستعمار الأوروبى الذين جاءوا من بعده وجاهدوا مثل جهاده .

فهو الذى شَقّ الطريق أمامهم وهم نسجوا على منواله » .

وفى عام ١٩٠٦ حينما كانت إنجلترا تحتل مصر ، حاولت أن تنتزع العقبة وخليجها من الدولة العثمانية وتضمها إلى سيناء المصرية التى كانت تحت حكمها وسيطرتها ، وحدث من جراء ذلك نزاع طويل بين الدولتين انتهى بفشل إنجلترا .

على أن إنجلترا ظلت تترقب الفرص لانتزاع العقبة وخليجها إلى أن انتهزت فرصة سقوط الحجاز بيد الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢٦ فعملت على ضم العقبة إلى الأردن الذى كان حينئذ تحت حكم إنجلترا وسيطرتها .

وقد اعترض على ذلك الملك عبد العزيز وأبرق إلى الحكومة البريطانية باحتجاجه الشديد .

وقد بحث المؤتمر الإسلامى العام المنعقد فى مكة سنة ١٩٢٦ وشهده مندوبون يمثلون جميع الأقطار الإسلامية ، مسألة العقبة وخليجها ، وقرر بالإجماع وجوب بقائها كجزء من أراضى الحجاز حرصاً على سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة فى مكة والمدينة المنوّرة ، وصيانة لطريق الحج إلى بيت الله الحرام .

وتنفيذاً للخطط الاستعمارية البريطانية البعيدة المدى حرصت إنجلترا مدة احتلالها لمصر سبعين عاماً على إبقاء الخراب مسيطراً على شبه جزيرة سيناء المتصلة بخليج العقبة اتصالاً مباشراً ، وجعلتها منطقة عسكرية مغلقة تحت سُلطة حاكم إنجليزى كان يمنع كل محاولة لعمرانها وزيادة عدد السكان المصريين فيها ، لتبقى خاضعة لسيطرة الاستعمار وميداناً خالياً لتحقيق مطامع اليهود .

وفى سنة ١٩٤٩ كانت أم الرشاش (موضع إيلات) مخفراً للشرطة تابعاً لفلسطين ، وبه مركز لشرطة البوتاس وأملاح البحر الميت .

ولكن الجنرال « جلوب » الذى كان يسيطر بجيشه عليها - حينئذ - أمر بإخلائها وتسليمها لليهود .

فكان من جراء ذلك أن تمكنت إسرائيل من احتلال هذا الموقع الحيوى واستطاعت الوصول إلى البحر الأحمر ، وبناء ميناء إيلات فى هذا الموقع الخطير

فإذا تجاوزنا الاستعمار الصليبى فى فلسطين . وأفاعيله الملتوية بأهلها وبنا جميعاً وجدنا أمامنا صورة أخرى لأحزان موصولة السواد فى الجزائر الذبيحة .

وهمجية الفرنسيين التى تمدها سائر دول الغرب لا ترضى إلا بإبادة المسلمين وإحلال غيرهم مكانهم .

وقد رسموا سياستهم على هذا النحو فلن يصدهم عن إنفاذها إلا أن يهلكوا قبلها .

وفى جحيم الاضطهاد قد يرتد بعض المسلمين عن دينهم ، ويتحولون إلى المذهب الكاثوليكى المسيحى .

ومع ذلك فإن عمى التعصب وغليان الحقد يفرضان فى معاملة أولئك المنهارين سياسة احتقار وإقصاء .

كأن ظفرهم بالحياة بعد ذلك التحول المنكسر جاء على غير رغبة القوم .

إنهم ما كانوا يريدون لهم إلا الموت .

الموت الذى أنزله الاستعمار الصليبى بسكان أمريكا وأستراليا الأصلاء ، والذى يجب أن ينزل بالعرب كذلك ، فلا ينجو منهم أحد وإن زعم أنه مسيحى !

مَن يدرى لعله مسلم فى قرارة قلبه ، وما حمله على إظهار تنصره إلا النجاة من الفناء ؟ .. لقد قال ناقد فرنسى يشرح مسلك قومه : « والإحساس بالتفوق المتأصل فى نفوس المستوطنين الفرنسيين ربما حتى بلغ حد « مركب الاستعلاء » .

واسمع إلى « أندريه چوليان » أستاذ تاريخ الاستعمار بجامعة باريس يصف أحوال المستوطن الفرنسى فى المستعمرات فيقول : إنه يمثل القاهر الذى يُخشى بأسه أو القادر الذى تُرجى حمايته ، أو العدو الذى لا بد من صداقته .

ومما يؤكد هذا التعصب العنصرى أن الفرنسين لم يغيروا موقفهم من القلة الجزائرية التى أفلح المبشرون فى تحويلها من الإسلام إلى الكاثوليكية .

ففى مذكرة رفعها المجلس الاستشارى بالجزائر سنة ١٩٠٣ طالب المستوطنون الفرنسيون ألا يُعطى المسلمون الكاثوليك الحقوق نفسها التى يستمتع بها الفرنسيون الكاثوليك .

وهذه العبارة الغبية السمجة تعنى بالمسلمين الكاثوليك العرب المتنصرين .

فالإسلام هو العروبة .

والعرب الذين تركوا دينهم تحت وطأة الاحتلال الفرنسى يجب ألا يتساووا مع السادة الأوربيين .

وعندما دخل الأميرال « ستيفا » المقيم العام فى تونس على « الباى » فى أحد الأعياد ، وقدّم له كبار الموظفين لاحظ أنهم جميعاً فرنسيون ، فعبّر المقيم عن أمله أن يرى بينهم العام القادم بعض التونسيين ..

فأجابه « ستيفا » : إن الفرنسيين وحدهم هم الجديرون بالوظائف الكبرى .

ولما أُسست المجالس البلدية فى تونس وتقرر فيها تمثيل العنصرين - أى الفرنسى والتونسى - على النحو المجحف المعروف رفض الفرنسيون الجلوس مع التونسيين فى قاعة واحدة قائلين : إنّ القبعات لا تجلس مع البرانس فى مكان واحد .

والبرانس هى الزى الوطنى لعرب المغرب جميعاً .

* * *

فى هذا الأفق المكفهر ظهرت فكرة التعاون المسيحى الإسلامى .

إذ أنّ الفكرة - على ما فيها من نبل وخير - اكتنفها ما يبعث على التساؤل العاجب ، إن لم نقل : التساؤل المنكر المدهش .. !!

ماذا يبغى الضارب من المضروب ؟ لماذا يقترب منه ويتأبط ذراعه ؟ إلى أين يسيران يا تُرى وعلام يصطحبان .. ؟

هل كَفّ الظالم يده ، وواسى جراحه ، ثم جاء يستأنف خطة جديدة أساسها السماحة والتعاون والرضا ؟؟ .

لا .. إنّ شيئاً من ذلك لم يكن .

إنّ الأوضاع السياسية الجائرة ما زالت آخذة بخناق المسلمين توشك أن تكتم أنفاسهم ، وتُجهز على دينهم .

فأنّى توجد صداقة مع هذه الحال ؟

وكيف تفترض مودةً أرهنتَ أنت حبالها ؟

إنه من الاستهانة بكرامتى ، بل من الاتهام لإحساسى المادى والأدبى أن أرى الغرب المسيحى يضربنى بعنف وهمجية ، ثم يرتقب بعد أن أكون حليفاً منطوياً على ولائه ، حريصاً على نُصرته !! .

ولذلك لم أستغرب لما رفض الجامع الأزهر أن يشارك فى هذا المؤتمر .

ولم أستغرب لما رأيت كثيراً من الهيئات الإسلامية تثير الريب حول مقاصده ومراميه ... !!

لكن نفراً من خيار المسلمين اختار أن يذهب ، وأن يقول ما عنده ، وأن يصارح رجال المسيحية بما لديه ..

إنّ النزاع القاسى المتطرف بين النصرانية والإسلام ينبغى أن يقف عند حد .

والوقود الذى يُشعل النار فى ذلك الخلاف من الخير أن ينطفىء ... وإنها لخطوة طيبة أن يفكر نفر من النصارى فى ذلك .

وسواء أكان الدافع نقياً كما نحب ، أم سياسياً كما يشجع البعض ، فإن هذا التلاقى فرصة يمكن استغلالها لمرضاة الله ، وتجنيب عباده ويلات التجهم والتعادى .

ولا شك أنه عندما تتحدد الوسائل وتُرسم الخطوط التى ترى الديانتان كلتاهما أنها أدنى إلى تقوى الله وإقرار النُصفة بين أتباعهما ، فإنّ أطماع الحكّام ، وحماس الجُهّال ، وقصور العوام ، لن يكون له كبير أثر فى إشعال حرب باسم الدين ، والدين منها براء .

ثم إننى - شخصياً - أعرف أن الإسلام تحمّل مظالم ثقيلة من عداته ، وأنه لا معنى لطى الإساءات التى نالته ما دمنا فى معرض التصافى والعتبى ..

ولن أنكص عن شهود مجلس قصارى ما أطلبه فيه الحرية الدينية .

الحرية التى اغتالها جمهور كثيف من آباء الكنيسة أول الدهر .

ولا يزالون يغتالونها إلى هذا اليوم ، ويستكثرونها على الإسلام وعلى أتباعه فى المشاق والمغارب .

نعم .. إنَّ مكمن الداء هنا .

هل المسيحية ترضى أن يعيش الإسلام إلى جوارها ؟

إنَّ رفضها وجود دين التوحيد بجانبها هو سر القتال الذى خاضه المسلمون الأولون استنقاذاً لحياتهم واستبقاءً لجوهر الإيمان الذى ارتضوه لأنفسهم ..

ثم هو سر حروب التحرير التى تدور رحاها الآن لتطهير أرض الإسلام من الفتّانين والفتّاكين ، الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ..

إنَّ المسيحية ضنَّت على بعضها بهذه الحرية ، وذكرى المذابح التى نصبها الكاثوليك لخصومهم لا تزال باقية .

أفكان الإسلام يظفر بخير من هذا المصير وهويرى المسيح بَشراً رسولاً .

بينما كانت الكنيسة تفتك بمن يرى أنه إله فيه طبيعة بَشر ؟؟

إننا مصرون على توطيد أركان الحرية الدينية ، ووضع سدود غلاظ أمام البغضاء التى أتعبت أسلافنا الأقدمين ، وأرهقتنا - نحن المسلمين - فى هذه الأيام الكالحة .

إنَّ حقد الصليبية على الإسلام وأهله مشكلة يجب أن تُحَل .

وحلها فى مؤتمرات السلام أولى من حلها فى ميادين القتال .

وفى هذه المؤتمرات يجمل أن نتصارح .

لنقل للنصارى : ما الذى يريبكم منا لنتركه ؟ ما الذى يهيجكم علينا لنبتعد عنه ؟

اطلبوا كل شيء إلا أن ندع ديننا .

فإنكم إن أصررتم على هذا الطلب المنكر لن تجف من الأرض الدماء ... ووزرها عليكم لا علينا .

* * *

تفرستُ فى وجو الأعضاء المجتمعين بفندق « سيسل » بالإسكندرية ، ثم خامرنى إحساس بالطمأنينة .

كان هناك قساوسة يبدو على ملامحهم الجد ، وشباب مثلى فى حركاتهم مرح وقوة .

ونساء وخط المشيب رؤوسهن ، وما زلن مقبلات على الدرس والبحث .

وخليط من الشرق والغرب مختلف العقيدة واللسان .

بيد أن حب الخير المطلق ظاهر عليه .

لم أشعر - والحق يُقال - أننى مع عملاء للاستعمار كما انطلقت بذلك الأشاعات .

نعم .. قد يكون لأمريكا غرض من وراء هذا المؤتمر . ولو صَحَّ هذا ما تأخرتُ عن حضوره ، فمن يدرى ؟

ربما كان الأمر كما قال أحد السَلَف : طلبنا العلم لغير الله فأبى الله إلا أن يكون له .

إذا كان للساسة مأرب من وراء التقاء رجال يمثلون المسيحية والإسلام ، فإنَّ هذا الالتقاء يجب أن يتم على أى حال .

ويجب أن يتمخض عن خير تهش له الألوف المؤلفة فى المشارق والمغارب من المسلمين والنصارى .

إنَّ هذا اللقاء لو نُظِّم وتعلقت بنتائجه القلوب فإنَّ القضايا التى يعالجها قد تخفف - إن لم تحسم - شرور كثيرة .

أياً ما كان الأمر فإننى أطلق القول - كمسلم فاقه لدينه ، محب لله ورسله ، رقيق القلب لجميع عباده :

إنَّ هذه المؤتمرات يجب أن تُشجَع ، وأن يُكترث بها ، وأن تُبذَل المحاولات الجاهدة كيما تُثمر السلام للناس .

وأعنى بالسلام : السلام الشريف الذى لا يحمل على أحد ضيماً ، أو يلزمه عاراً .

وأنا هنا لا أقص ما قيل فى المؤتمر المسيحى الإسلامى ، المنعقد بالإسكندرية فى دورته الثانية ..

وإنما أتعرض فحسب لما يتصل بموضوع هذا البحث .

فإن توفير الحرية الدينية كان لا شك من أهم الأهداف التى ناقشها المجتمعون .

ويظهر أن الدكتور « هتشنسون » الأمريكى ، كان يائساً كل اليأس من حصانة الضمير الدينى ، ومتشائماً كل التشاؤم من تسليم أزِمّة الحكم له .

ولذلك دعا - بقوة وحرارة - إلى فصل الدين عن الدولة . رائياً أنَّ ذلك هو الضمان الوحيد لتوطيد الحريات العامة ، وأنه كذلك هو السياج القوى لمنع الاضطهاد الدينى .

والدكتور الفاضل يرى أنَّ أمريكا - يعنى الولايات المتحدة - لا يصح أن تسمى دولة مسيحية ، وإن تكونت من أتباع لهذا الدين ، فإن انفصال الدين عن الدولة قائم أو يجب أن يقوم ... وهذا الكلام نرضى بواعثه وننكر وسائله .

فإنَّ فصل الدين عن الدولة نغمة ولدت فى الغرب للخلاص من القيود الكنسية على حرية العقل والضمير ، ثم نُقلت إلى الشرق كى تمهِّد العقبات أمام الزحف الاستعمارى ، وتهد قلاع المقاومة الهائلة التى ثارت فى وجهه .

أى أنها كلمة قيلت هناك للحد من طغيان رجال الدين ، وتقال هنا لهدم دين كامل ، والإتيان على بنيانه من القواعد .

وقد قيلت هناك وبقيت روح الغرب المسيحى تعمل عملها فى الكيد لنا ، وتمزيق شملنا ، ثم قيلت هنا لنقبل هذا الكيد ، ونستكين لهذا التمزيق .

والدول التى زعمت أنّ الدين منفصل عنها ، هى بعينها الدول التى تهيج الفتن فى العالَم الإسلامى ، وتنبعث فى سياستها عن تعصب مقيت ضده .

ولو نفخنا الأغشية الرقيقة التى تخفى الأساليب العسكرية والمدنية والثقافية فى معاملاتنا لوجدنا لإنجلترا وفرنسا وأمريكا و غيرها وجهاً صليبياً كالحاً يقدح بالشرر ويتميز بالغيظ .

إنّ تأمين الحريات الإنسانية ، فى مقدمتها الحرية الدينية ، لا يتأتى بفصل الدين عن الدولة على النسق الذى عرفناه فى دول الغرب صغراها وكبراها .

فإنّ هذا الفصل المزعوم كان أكذوبة كبرى .

وترويجه فى أقطار الشرق الإسلامى خدعة رديئة لا تغيب دلالتها عن بصير ، وإن اشتغلت بذلك صحف ومجلات ، واحتشد أدباء مغرورون أو مأجورون .

إنّ الإسلام أرحب الأديان حضارة ، وألينها عريكة ، وأرحمها معاملة ، وأحناها على مخالف وجاهل .

وإذا كان يؤخذ على المسلمين شىء فهو أنهم أشد إحساساً بمطالب غيرهم من إحساسهم بمصالحهم الخاصة .

وأنهم فى عنايتهم بمخالفيهم قد يهضمون أنفسهم كالفقير الكريم يجود بما لديه وأهله أحوج إليه .

وقد اتسع العقل الإسلامى لضروب من الخلاف والجدل وصلت إلى مرتبة الإسراف .

واتسع الضمير الإسلامى لقبول ألوان شتّى من الخصومات فما عكرت صفوه ولا غضنت وجهه .

ومن ثَمَّ فنحن نتجاوب أوسع التجاوب وأتمه مع الدكتور « هتشنسون » حين يقول : إنَّ الحرية الدينية أهم ركن فى حرية الأفراد . كما أنها إحدى الأسس المهمة التى قامت عليها الديمقراطية .

ولكننا نرى الآن أنَّ الحرية الدينية قد حُدِّدت لدرجة لا يمكن مقارنتها بأى قرن من القرون الماضية .

كما ازداد الآن عدد الدول التى لا يتمتع أهلها بحرية العبادة ، وإقامة شعائر دينهم أكثر من أى وقت مضى .

فإذا كانت هذه هى الحقيقة - أو بعض الحقيقة - فلقد أزف الوقت الذى يجب أن نبحث فيه هذا الركن الخطير من الحرية الإنسانية .

وقبل أن نتعمق فى هذه الناحية يجب أن نحدد مصطلحاتنا .

فالحرية الدينية تعنى حق كل فرد فى عبادة ربه بأى طريقة يختارها طالما أنه لا يعتدى على حرية وأمن الآخرين .

لكل فرد الحق فى أن يتبع أى عقيدة دون أن يتعرض لعقاب قانونى ، أو خسارة اقتصادية ، أو تفرقة اجتماعية ، أو أى عقوبة أخرى .

إنه يتضمن أيضاً حق الفرد ألا يؤمن بأى عقيدة .

إنه الحق فى أن يقوم الفرد بتعليم دينه للآخرين إذا اعتقد بأنه وجد الطريق إلى الله وإلى الخلاص .

إنه الحق فى أن يعارض أية عقيدة طالما أن معارضته ستكون عن طريق الإقناع لا القوة .

إنه الحق فى أن يتبع تعاليم دينه لخدمة الإنسانية .

إنه الحق فى أن يتقرب الفرد إلى الله بالطريقة التى يفهمها هو أو يبتعد عن الله إذا اختار ذلك دون أن يتعرض لأى عقاب أو تقييد اجتماعى ، أو سياسى ، أو اقتصادى ، أو قانونى .

والسؤال الذى نوجهه للنصرانية هو : هل احترمت فى ماضيها الحرية بهذا المعنى الشامل وذلك الإصلاح الرحب ؟

وإذا كانت لم تفعل ذلك فى الأمس القريب أو فى الأمس البعيد . فهل تنوى أن تقيم صلاتها بالأديان الأخرى فى الحاضر والمستقبل على هذه الأسس ؟

إننا قبل أن نجد إجابة على هذه الأسئلة المتمنية . يجب أن نقطع الطريق على مزاعم المستعمرين وعملائهم ممن يريدون تزييف التاريخ لحساب دين بعينه .

فلنقل هنا كلاماً للدكتور « هتشنسون » نفسه يلقى ضوءاً على الموضوع ، ولنلفت النظر إلى ثلاث نقاط بارزة فى ذلك الكلام .

١ - إن الكنيسة انتحلت لنفسها سلطة الإشراف على الدولة وتسيير دفة الحكم وذلك خلاف ما توحى به النصوص الدينية عند القوم .

٢ - إن هذا التسلط استغل استغلالاً سيئاً فى الاضطهاد والفتنة وإشاعة الأهواء والمظالم .

٣ - إن بناء الإيمان لم يلزم خطة الإقناع والمنطق ، بل جنح الكهنة فيه إلى القسر وإذلال الخصوم . قال الدكتور الفاضل :

« كتب البروفيسور جريدو دى روجيريو - وهو كما أعتقد أحد كبار المؤرخين الكاثوليك - يقول فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية :

« إنَّ المسيحية هى القوة الفعَّالة التى وقفت ضد صراع العالَم البَشرى للحصول على الحرية الدينية .

إذ أنها زادت من قوة العناصر التى تشجع على عدم التسامح ، والتى جاءت ضمن التراث العبرى . بل أضافت إلى تلك العناصر إدخال عدة دوافع جديدة قوية وهى فكرة نشر رسالة موحدة فى أنحاء العالَم ، ونشر بعض التعاليم التى لا تقبل المناقشة . وغرس فكرة أنَّ الكنيسة هى همزة الوصل بين الخالق والإنسان » .

ثم قال : « إننى لا أعتقد - كما سأبين فيما بعد - أنَّ هذه هى الأسباب ، ولكن البروفيسور « روجيريو » على حق فى أنَّ المسيحية كانت القوة الفعالة على مدى التاريخ ضد تحقيق الحرية الدينية . وفى الوقت نفسه تحوى المسيحية بين طياتها أعظم التعاليم التى تدعو إلى حرية الإنسان . أى المسئولية المباشرة للفرد أمام الخالق .

وعلى ذلك فهناك صراع قوى فى المسيحية بخصوص مشكلة الحرية الدينية .

وهو الصراع الذى أشعر بالأسف حين أقول : إنه لم يعضد فى أنحاء العالَم ليحقق الحرية .

ولن يسمح لى المجال لكى أؤرخ ذلك الصراع .

ولكن المسيحية - مثلها فى ذلك مثل أى شعب من الشعوب - كانت تنادى بالحرية حين تشعر بالاضطهاد ، ولكنها تنكر الحرية على الآخرين حين النصر » .

ثم قال الدكتور : « لقد حمل المسيحيون الأولون فى القرون الأولى شعلة الحرية الدينية .

كما أنَّ كثيرين منهم لاقوا حتفهم شهداء فى أثناء الاضطهاد .

ولكنهم أصبحوا متعصبين وقساة بعد أن قوى ساعد المسيحية واشتد أثناء حكم قسطنطين وبعده .

وبعد قرار عام ٣١٣ بسبع سنوات صدرت عدة تقييدات ضد الحفلات الدينية الخاصة التى قام بها الوثنيون . وضد العمل أيام الآحاد .

إذ اعتبر كل مَن يعمل يوم الأحد كافراً ، وكذلك ضد هذه أو تلك من المعتقدات أو التعاليم الدينية المخالفة .

ولقد طلب نستوريس من الامبراطور ثيودسيوس . إصدار ثمانية وستين قانوناً ضد الوثنيين .

وعلى الرغم من احتجاجات « الكوين » رجل الكنيسة العظيم ، تم تنصير السكسون بالقوة وإراقة الدماء .

وفى عام ٤٢٣ بدأ اضطهاد اليهود . وأخذ يزداد بانتظام حتى قرر مجلس وزراء طليطلة بطلان أعمال التعذيب .

ونستطيع أن نكمل تلك القصة فى عصرى الاضطهاد والإصلاح .

فنجد المصلحين البروتستانت يناضلون فى سبيل الحرية الدينية بينما يقومون فى الوقت نفسه باضطهاد كل مَن يعتبرونه وثنياً .

ونجد البروتستانت الإنجليز يقومون بتعذيب الكاثوليك .

والكاثوليك يضطهدون البروتستانت .

والمهاجرون الذين ذهبوا إلى أمريكا فى سبيل الحرية الدينية قاموا بتعذيب الوثنيين الذين بين ظهرانيهم .

إنها قصة حزينة تركت آثارها فى حياة كثير من الأبطال مثل « أوجستين » ، و« چيروم » و « لوثر » و « كلڤن » ، وكثيرين غيرهم الذين ناضلوا فى وقت ما فى سبيل الحرية الدينية ، بينما أنكروها على الآخرين فى وقت آخر » .

* * *

وما ذكره الدكتور عن التعصب الصليبى إشارة خفيفة أو قطرة من بحر بالنسبة إلى ما سجّله التاريخ من مآسى القوم .

والشىء الذى لا تنقطع الدهشة منه هو ما يظهرونه من براءة وشرف بعد اقتراف أشنع الجرائم .

فالإنجليز الذين احتلوا مساحات من أقطار الأرض الفسيحة تزيد على سبعين ضعفاً من بلادهم يسمون الجهاز العسكرى الذى صنع هذا وزارة الدفاع .

أما دولة الأردن التى تعيش على إعانات من هنا وهناك فلها وزارة حرب !

لله ما أغرب خداع العناوين فى هذه الدنيا .

رئيس وزراء فرنسا يقول : إننا نعتبر الجزائر كالألزاس ، ونعد عربها فرنسيين ونقاتل دون هذا .

فإن قاوَم أصحاب البلاد هذا الفجور السياسى السمج قيل لهم : أنتم متعصبون !

وعندما كافح شعب لبنان محاولات المارون محو الطابع العربى عن بلاد تسعة أعشارها عرب وسبعة أعشارها مسلمون قيل له : أنت رجعى ، أنت متأخر ، أنت متعصب !

لماذا ؟ لأن كثرة الأهلين فى لبنان إن لم يخضعوا للقلة الموالية لفرنسا وإنجلترا وأمريكا ، والتى تريد إثبات الطابع الصليبى للبلاد بالقوة فهم متهَمون بالتعصب ! أما أذناب الغرب وأشياعه فهم فوق التهم ! .

إنَّ للتعصب الصليبى صوراً لا حصر لها ، وإثارات تخلق رد الفعل عاتياً قاسياً ، وسنرى من ذلك أمثلة شتَّى .

والدكتور يرى أنَّ التعصب - عموماً - ينشأ من تسلط الدين على الدولة فيقول : « إن السبب الرئيسى للاضطهاد الدينى يتركز فى ارتباط الدين بالدولة ، فنلاحظ أنه فى كل حالة قامت المسيحية فيها بحرمان الأفراد من الحرية الدينية كانت السُلطة الحكومية مركَّزة فى يدها .

والحكومة دائماً فى وضع يسمح لها بإرغام الأفراد ، إذ أنها قوة منظَّمة أو غير منظَّمة ، تملك ما تشاء .

وهى بطبيعة تكوينها لا تخرج عن كونها قوة مادية .

وقد تكون الحكومة ضرورة لتنظيم وإدارة شئون الأفراد .

ولكنها - على الرغم من ذلك - تمثل التسلط والإرغام .

بَيْدَ أنَّ الدين شيء روحى ، إنه اتصال الله بقلب وعقل الإنسان بالإقناع والتعليم دون ما قوة وإرغام .

فالدين يثبت عن طريق الإقناع والإلهام .

أما الحكومة فعن طريق الإرغام والقوة .

وهما بذلك لا يتفقان فى شيء ، بل إنهما متضادان .

فإذا تسلَّط الدين على قلوب الأفراد فليست هناك ثمة حاجة حينئذ إلا لسُلطة حكومية بسيطة .

وهذا هو ما دعا « چفرسون » إلى أن يقول : « أفضل الحكومات أقلها سُلطة » .

إذ أنه كلما زادت سُلطة أحدهما قلَّت سُلطة الآخر .

فالدين والحكومة يكمل أحدهما الآخر ، ويعوِّض أحدهما عن الآخر .

ولكن لا يمكن أن يتحدا دون استخدام العنف والتعذيب .

وهنا يقع الزغل الكبير فى تاريخ المسيحية .

وهذا الزغل قد أدى إلى التعصب الذى قاوَم الحرية الدينية .

فإذا قرأت جيداً أخبار ستة عشر قرناً من القيود الدينية والاضطهاد والتعصب فى جميع الدول المسيحية الأوروبية ، وفى شمال وجنوب أمريكا ، سواء أكانت تلك الدول كاثوليكية أم بروتستانتية فلن تجد إنكاراً للحرية الدينية يستحق الذكر إلا من الدول التى اتحد فيها الدين مع الحكم برباط قوى لا يمكن فصمه » .

وعلى هذا النحو مضى الدكتور يغرينا أو يؤكد لنا أنَّ الدين يجب فصله عن الدولة .

والحُجَّة الأولى والأخيرة أنَّ المسيحية حكمت فأعنتت ، وملكت السُلطة فصادرت الحرية ، ووضعت يدها على الدولة فأصابت حقوق الأفراد والشعوب بشَرٍ كبير .

وإذن فيجب تجريد كل دين من سلطان الدولة ، ويجب تجريد الإسلام - بالذات - من كل سناد حكومى !!

وهذا الكلام لا يمكن غض النظر عما فيه من تهاو واضطراب .

فإنَّ قياس دين بدين ونتيجة بنتيجة لا يجيئان بهذه السهولة .

بَيْدَ أنَّ الريبة العظمى تملأ قلوبنا حين نسمع الكلام المذكور فى وقت تتضافر فيه قوى الأمريكان والإنجليز والفرنسيين ومَن وراءهم وهم يستميتون فى سحق الإسلام وتدويخ أهله .

إنَّ هؤلاء الناس - حكومات وشعوباً - لا يدعون فرصة تمر دون بسط اليد بأى أذى يمكن إلحاقه بنا وبديننا .

فكيف نستطيع المقاومة الناجحة إذا كانت العقائد المعتدية تظاهرها قوى كبيرة، على حين يُطلب من الإسلام ومن معتنقيه ألا يفكروا أبداً فى إقامة دولة به أو دولة له ؟!

إنَّ هذا الكلام ليس بحثاً علمياً خالصاً ، بل هو أشبه بالاحتيال الثقافى ، أو هو تسويغ لما يصنعه الغربيون بنا ، ونحن فى حِلٍّ من رفضه ، دون تردد .

إنَّ الإسلام لو كان ديناً نظرياً أو فلسفة خيالية لكان عليه - كيما يحتفظ بحياته - أن يواجه المواقف الآتية :

١ - قيام دول مادية تمثل الإلحاد المسلَّح ، وتنشر مبادئه فى كل مكان .

٢ - قيام حكومات بادية القوة تشتغل بنهب الأقطار المتخلفة واسترقاق أبنائها ووضع العوائق للحيلولة دون ارتقائهم .

٣ - قيام حضارات تعتمد على الشهوات الإنسانية ، وتبنى تعاليمها على نوهين صلة الأرض بالسماء ، أو تزييف هذه الصلة ودفعها فى مجرى يصبغ العالَم بجاهلية حديثة .

٤ - انفجار الأحقاد ضد الإسلام ، من الصهيونية التى حملت السلاح علانية ضد العرب ، ومن الصليبية التى تستخفى حيناً وتُكَشِّر عن نابها أحياناً .

فهل تلك الأحوال المخوفة هى المقدمات المعقولة التى تنتج انسلاخ الإسلام عن الدولة ، ووجوب تجرد الدين من كل سلطة تنافح عنه ، وتشرب روحه ، وتقيم حدوده ، وتذود عنه المعتدين ؟؟

إنَّ أركان الدولة جزء من تعاليم الإسلام ، كما يعلم ذلك أى دارس للقرآن الكريم والسُنَّة المطهَّرة .

وتكليف الإسلام أن يتفق مع النصرانية على حذف الدولة من رسالته لا يليق .

وهو أشبه ما يكون بتكليف شخصين يملك أحدهما مائة قرش ، والآخر يملك ألف جنيه أن يتبرعا بما معهما .

إنَّ الغُرم كله واقع على المكثر لا على المقل .

واهتمامنا بأمر الدولة يرجع إلى أنَّ هناك أحكاماً تتفق الأديان كلها على ضرورة إقامتها ، فرَّط فيها غيرنا مع علمه بأمر اللّه فيها ، فلماذا يُفرض علينا أن نفرِّط فيها نحن الآخرين ؟

وذلك كحُرمة الربا والزنا .

فإن الدولة المسيحية تكاد تُجمع على استباحتهما وتسن القوانين المالية والاجتماعية وفيها إغضاء مطلق عن هذا التحريم .

ونحن نعتقد أنَّ من وظيفة الدولة تنظيف المجتمع من هذه الأوبئة .

ولا نرى فصل الدين عن الدولة فى تلك الشئون .

على أنَّ للإسلام غايات يسعى إليها ، ومُثلاً عليا يحتضنها .

كإقامة الإيمان وحمايته ، وحفظ الصلة الإلهية بين اللّه وخلقه ، والاهتمام بأمر الصلاة والزكاة والحق والخير ، والإسهام مع أى فرد أو جماعة فى إقامة حضارة تحترم العدالة وتقر الإنصاف وتُسعد البَشر .

فلماذا تُبتر الدولة من تعاليم الإسلام ؟ . وهى التى تحمل هذا العبء فى الوقت الذى تقوم فيه عشرات الدول المسيحية بشن حملات مترادفة على الإسلام لتوهن قواه وتبدِّد شمله وتُذيق أهله الأمَّرين ؟؟ .

إذا كان لأحد أن يعض بنان الندم ألف مرة على ما صنع بنفسه .

فنحن - المسلمين - الذين نلعق مرارة الحسرة لأنّا سمحنا للدين أن ينفصل عن الدولة ، أو بتعبير أصرح : سمحنا للاستعمار أن يغزونا فى عُقر دارنا فكانت تلك المآسى السود فى ديار الإسلام التى لا تزال محتلة بالأجانب ، أو فى الديار التى جلوا عنها وبقيت آثارهم فيها تحتاج إلى تطهير محض طويل ...

ومن البديهى أنّ حرية الدعوة إلى اللّه ، واعتناق دياناته المختلفة شئ لا يتنافى مع بقاء الدولة فى أحضان الإسلام ...

إنّ تجارب أربعة عشر قرناً مضت تهتف بأنّ الحكم الإسلامى لم يستغل السلطة يوماً فى الإكراه على الدين ، أو التحويل عن مذهب .

وسجلات التاريخ تعى النقائض فى هذا المضمار بالنسبة إلى المسيحية ، ومذاهبها الكثيرة ...

وعندما ننظر إلى الأحداث التى تظلنا الآن - نجد أنّ دولاً اصطُنعت اصطناعاً فى بيئات ، ما كان يمكن أن تتمخض عنها - لتكون هذه الدولَ سوط عذاب للإسلام وأهله .

فى « غانا » و « الحبشة » و « لبنان » - مثلاً - اختلقت فيها حكومات مسيحية مع أنّ كثرة الشعب فى هذه الأقطار مسلمة !!

لماذا ؟ لأن النصرانية تريد استغلال الجهاز الحكومى الخطير فى مد حياتها ووأد عداتها ، ثم يقال بعد ذلك للمسلمين : افصلوا الدين عن الدولة !!

واقتران التبشير بالاستعمار أمر معروف ، وقد رأينا كيف يمهد رجال الكنيسة فى أواسط إفريقيا وجنوبها وشمالها لحكم إنجلترا وفرنسا ... ثم أمريكا أخيراً .

ولنضرب الأمثال لكى يعرف القارئ كيف تسيطر النزعة الدينية على الحكم وتوجه أداته تبع هواها ...

* * *

حكومات مسيحية لشعوب مسلمة

لـ « لبنان » قضية ينبغى أن تألف الآذان سماعها ، وأن تستحضر باستمرار مغزاها . قصة الشعب المسلم الذى تواطأت الأقوال على أنه قلّة وهو كثير .

والدين الذى زعموا أنه يستمتع بحريته وهو يختنق ويذوى وراء سياسة محكمة من الإقصاء والتضييق ...

وهى قصة تثير السخط والضحك .

أما السخط ، فلهذا التآمر على إخفاء الحقيقة . وتجاهل وجودها وكتم أنفاسها كلما قامت بحركة تنبئ عن حياتها ...

وأما الضحك - وهو بداهة ليس ضحك التبسط والسرور . ولكنه ضحك الدهشة والعجب - فهو أنّ المظلوم يرد الضربات عن نفسه وهو يصيح : لستُ متعصباً !!

نعم .. هذا المظلوم يخفف من قبضة الأصابع الحديدية على عنقه ، ثم يصيح - وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه : أنا لا أريد إماتة أحد .

أليس ذلك موقف المسلمين فى لبنان ؟

إنّ الدستور القائم حكم أن توضع مصائرهم فى يد طائفة حاقدة .

وجعل الميزان مقلوباً فى كل شأن سياسى واجتماعى .

لمصلحة ثلاثمائة ألف « مارونى » اعتبروا الكثرة الساحقة ، بينما اعتبر نحو مليون مسلم قلّة صغيرة !

فإذا تحرك المسلمون بين الحين والحين لينقذوا ما يمكن استنقاذه من دينهم ودنياهم ، كان الاتهام الذى ينشغل المسلمون بدفعه أنهم ليسوا متعصبين ..

نسمع هذا السياسى ، وهذا المفتى ، وهذا الموظف ، وهذا التاجر ، وغيرهم من قادة الطائفة الإسلامية - كما تسمى فى لبنان - نسمع أولئك جميعاً يجتهدون فى نفى تهمة التعصب عن أنفسهم .

لماذا ؟ .. لأن الإسلام الذى يُلطَم على وجهه هو أول التهمة .

أما المارونية التى تلطمه فهى فوق المآخذ والريبة .

الكثرة المنكورة الحق متعصبة .

والقلة المنتفخة المفتئتة على غيرها ، لا .

وعلى الدم الإسلامى أن يُسفَك وهو ظنين موصوم ..

وعلى القَتلة - ومن ورائهم « أمريكا » و « إنجلترا » و « فرنسا » - أن يزعموا أن الصليبية السالبة الناهبة لم تقترف ذنباً ولم تعرف تعصباً .

فإعطاء الكثرة المسلمة النُزر اليسير شئ مفهوم .

وتضخم القلة المارونية ، ومضاعفة أنصبتها من كل شئ أمر مفهوم أيضاً .

وهذا ما يحكم به العقل ويرتضيه العدل .

أما القول بغير ذلك فهو من الإسلام تعصب ، ومن المسلمين تطلع يُقاوَم بحد السيف ..

* * *

من ثلاثين سنة اصطنع الفرنسيون إحصاءً مزوراً لسكان لبنان ، قصدوا من إجرائه إقامة وطن مسيحى قومى بجوار الوطن القومى لليهود فى فلسطين ..

ويكون من هذا الصنيع المفتعَل حاجز يفصل الإسلام عن شرق البحر الأبيض المتوسط ، ويمزق كيانه الممتد بين آسيا وإفريقيا .

ولما كانت هذه المناطق إسلامية خالصة ، ولا يوجد فيها من اليهود والنصارى إلا عدد قليل ، فقد رأي الاستعمار تسخير جميع الوسائل ، واستخدام القوة

والحيلة ، والجيش والسياسة ، والخيانات المحلية والدولية لتهويد فلسطين ، وتنصير لبنان ..

وأُقيمت دولة إسرائيل بعد استقدام الألوف المؤلفة من يهود أوروبا ليكاثروا عرب فلسطين بعددهم ..

وفى عُرف السياسة الغربية يجوز وصف هذا العمل بأى صفة إلا أنه تعصب ضد الإسلام والتهام لحقوق أهله .

وأُقيمت دولة لبنان بعد أن زُيِّف إحصاء غريب أُهملت فيه جماهير كثيفة من السكان المسلمين ، ثم ضمت فى الوقت نفسه ألوف مؤلفة من النازحين إلى الأمريكتين الذين تجنسوا من نصف قرن بالجنسيات الأمريكية المختلفة ، أُعتبروا جميعاً مسيحيين لبنانيين .

وبذلك - وبفنون عجيبة أُخرى من الكذب والتشويه - أمكن جعل المسلمين نحو ٤٨٪ من السكان .

ثم جُعِلت شارة الدولة وأجهزتها وسياستها مسيحية من الألف إلى الياء .

وأخذت السلطة التى أقامها الاستعمار ورسم لها وجهتها تؤدى وظيفتها وتمشى رويداً رويداً إلى غايتها ..

فقامت سياسة التوظف على وضع المناصب الكبرى والصغرى بيد المسيحيين وحدهم ، حتى ليندر أن يُرَى موظف مسلم فى عمل رئيسى .

ونسبة المسلمين فى الوظائف العسكرية والمدنية والخارجية لا تتجاوز ١٠٪ .

وقامت سياسة التعليم على مثل ذلك .

فأُغلقت فى عهد « إميل إده » جميع المدارس الإسلامية .

ونشطت الحكومة فى إقامة تعليم ذى صبغة معينة يتسع فى مرحلتيه الأولى والمتوسطة لعدد من المسلمين .

فإذا جاء دور التعليم الجامعى سُدَّت الأبواب فى وجه الكثرة ، أو سُمِح لنفر يُحصَون على الأصابع بدخول بعض الكليات النظرية .

أما الطب والهندسة ، فيصعب أو يستحيل أن يتيسر أمام الطلاَّب المسلمين .

وفى « لبنان » ثلاث جامعات مسيحية تشرف حكومة « لبنان » على إحداها ، ويشرف الڤاتيكان على الثانية ، ويشرف الأمريكان على الثالثة .

وكلها تتسابق بهمة ظاهرة لإماتة الإسلام فى نفوس المسلمين وبين صفوفهم ، وتخريج طبقة من المثقفين تدين بولائها الروحى والعلمى للغرب فحسب .

وفى « لبنان » التقت جهود نصارى العالَم أجمع ، كيما يتم إنجاح الغزو « الصليبى السلمى » لهذه البقعة .

فهناك بعوث وأديرة ومدارس يُسهِم فى تمويلها وتعضيدها أهل السويد فى شمال أوروبا ، وأهل النمسا من وسطها ، عدا الفرنسيين فى الجنوب .

وذلك إلى جانب جهود الأمريكان فى القارتين الشمالية والجنوبية .

* * *

كتب « جوردن جاسكيل » فى مجلة « المختار » تحت عنوان : « لبنان واحة الشرق الأوسط » عدد يونيه سنة ١٩٥٨ ما يأتى :

يقول المثل : « ألق حجراً على أى حشد لبنانى ، وستكون واثقاً من أنك ستصيب أسقفاً واحداً على الأقل » !

إنَّ بيروت تزخر بالأساقفة ، وبها اثنان من الكرادلة الكاثوليك - وهى المدينة الوحيدة فى العالم التى تجمع مثل هذا العدد عدا روما - ذلك فضلاً عن جيش ضخم من البطاركة ، والكهنة والأرشمندريت ..إلخ .

لِمَ كل هذا ؟ لمحاولة تنصير لبنان !

وإنشاء وطن قومى مسيحى يكمل الوطن القومى اليهودى المقام فى فلسطين . المهم هو إتمام ذلك العمل الدنئ فى صمت وليونة ما أمكن .

فإذا لم ينجح هذا الأسلوب فليس هناك إلا الذبح والاستئصال للتغلب على الإسلام « المتعصب » !

* * *

المال والعلم والفن وصنوف المعاونات الجلية والخفية تآمرت جميعاً ضد المليون مسلم المقيمين فى « لبنان » والذين يُراد طيهم فى أكفان الموت الأدبى والمادى .

تلك التى نسجتها الصليبية الغربية ، فأحكمت نسجها .

بَيْدَ أنَّ الأمر تطلَّب عملاً آخر ، فإنَّ المسلمين لا تزيدهم الأيام إلا كثرة ، ولا بد من مغالبة هذا التزايد الذى صحبته يقظة معنوية خطيرة ..

وهنا تجئ سياسة التجنيس .

فقد دأبت حكومة « لبنان » على اصطياد أى مسيحى والتبرع له بجنسية لبنانية ، آملة من وراء ذلك تحويل الكثرة المزعومة إلى كثرة حقيقية ..

وعندما زرتُ « لبنان » تعرفتُ على بعض المصريين النازحين ابتغاء الرزق .

فأما المسلم منهم فهو يحمل إذن إقامة موقوتة .

وأما القبطى فقد مُنِحَ جنسية لبنانية .

وكذلك صنعت حكومة « لبنان » مع اللاجئين الفلسطينيين .

المسلمون منهم يلقون الهوان والتجريح .

أما المسيحيون فقد أُعتبروا مواطنين صالحين .

وتوجد فى « لبنان » طائفة كردية قدمت إلى هذه البلاد وتوطنتها قبل أن يجئ الأرمن إلى « لبنان » بأمد طويل .

ومع ذلك فإن الأرمن - لأنهم نصارى - نالوا الجنسية اللبنانية فى هدوء وبساطة .

أما الأكراد المسلمون فقد حُرِموا هذا الحق ..

ولما شعروا بالعلّة الخافية وراء حرمانهم لجأ بعضهم إلى الحيلة . فأعلن تنصره ، وسارع أولو الأمر على عجل فأعطوه الجنسية اللبنانية ، فلما نالها واطمأن عاد إلى الإسلام مرة أخرى ، وهنا ثارت ثائرة الحكومة اللبنانية وقرر رجالها ألا يقعوا فى هذا الفخ .

وحظروا ألا يدخل أحد من الأكراد فى الجنسية اللبنانية ! ..

والوجة الصليبى لحكومة « لبنان » لا تستره التزويقات المصطنعة ، فثوب الرياء يشف عما تحته .

وقد رأى أخيراً بعض ساسة « لبنان » ألا ضرورة لهذا الرياء ، فكاشف بما يُضمر ، وأعلن فى المجالات الدولية عن حقيقة نفسه .

ومن هنا رأينا الطابع الخارجى لسياسة « لبنان » غربياً بحتاً .

لا على أساس من المصالح المشتركة ، بل على أساس من العواطف المشتركة .

وكان من المضحك أن يؤيد « لبنان » مشروع « أيزنهاور » قبل أن يؤيده البرلمان الأمريكى ، وأن يكون مركزاً للشغب الدائم ضد التيار العربى المتحرر .

وانفجر الجمهور فى « لبنان » ضد حكومته المتعصبة الحاقدة .

فماذا حدث ؟ سارعت إنجلترا وفرنسا وأمريكا - وهى دول الاتفاق الثلاثى لحماية إسرائيل - سارعت إلى الوقوف مع السُلطة الجائرة فى « لبنان » ومغاضبة الثورة الحرة واتهامها ، ومحاولة إرغام المليون مسلم على الخضوع الذليل للحكم الذى صنعه الاستعمار وحدّد أهدافه .

وفى هذه المناسبة الدقيقة ، واحتقاراً للدم الأبى المسفوك فى القُطر المضطَهد . يبرز فى دنيا السياسة العالَمية اتفاق يجعل السيد « شارل مالك » وزير خارجية لبنان رئيساً لهيئة الأمم المتحدة .

كأن الصليبية العالَمية تقول لعملائها فى « لبنان » : لا تقلقوا ، نحن من ورائكم .

ثم تنشط دول الغرب الثلاث ، وتتصل بالجمهورية العربية المتحدة لتحول بين عونها وبين الشعب اللبنانى الثائر .

إنَّ حكومة « لبنان » ربيبة أخرى لحكومة إسرائيل ، وإنَّ أمريكا هى الوالد الروحى والمادى لهذه الربائب الملعونة .

ولو أنَّ هذه المأساة أخذت عنوانها الطبيعى لقلنا : حلقة فى سلسلة المظالم التى يرتكبها بعض البَشر مع البعض الآخر .

وما أكثر ما يتغابن الناس على مر العصور .

لكن المزعج فى هذه القصة أنَّ القتيل يرضى وليس يرضى القاتل .

وأنَّ البرئ يتغاضى والمجرم يتطاول .

وأنَّ الإسلام الجريح النبيل يتحامل على آلامه ، ويريد أن يتجنب العراك وألايثير اللجاجة .

أما خصومه فهم يمضون فى طريق الضغائن والافتراء لا يردهم شئ .

وعندما شاعت فكرة القومية العربية ، وصار لها شأن يُذكر فى ميدان السياسة وتطلع لها جمهور كبير فى « لبنان » قال رجل « مارونى » لأحد المسلمين : إنَّ العروبة تعنى الإسلام ، وأنتم تتسترون وراءها لعلّة لا تخفى .

فقال له المسلم : إنَّ العروبة أوسع دائرة ، وهى لا تعنى ديناً ولا مذهباً ! ويجب أن تُفسِحوا لها الطريق ، وأن تُشرَحوا بها صدراً .

قال المارونى : مهما ارتضيتم لها من تفاسير فنحن نأباها . وعلى أى حال فنحن لسنا عرب ، إننا جنس آخر ارتبط بالغرب فى روحه وفكره .

وحاول المسلم الساذج أن يقنع صاحبه بأنه عربى ، وأنَّ العروبة لا تعنى الإسلام ، وكان رد « المارونى » : كلا ، وأنتم متعصبون ! .

وغاظنى أن تسقط الحقيقة إلى هذا الدرك ، وأن تجد الصفاقة هذه الجرأة .

فقلت : هَب العروبة تعنى الإسلام ، فماذا فيها من تعصب ؟ .

هل الذى يطلب حق الحياة متعصب ، والذى يستكثر هذا الحق على غيره متسامح ؟

هل القِلّة التى تزيف الأوضاع لتسود باسم الدين متسامحة ؟ والكثرة التى تنشد العدل وتحترم الواقع هى التى تُتهم بالتعصب ؟ !

إنَّ الفرنسيين جاءوا إلى هذه البلاد ، فكذبوا على تاريخ الماضى والحاضر وأرادوا أن يجعلوا منكم ملوك لبنان كما أراد حلفاؤهم أن يجعلوا اليهود ملوك فلسطين .

أفيُعتبر العرب متعصبين لكراهيتهم هذا الكذب الصراح . وتُعتبرون متسامحين لأنكم صدقتم ما افتريتم ، وأقمتم حياتكم عليه ؟ !

أليس فى وجوهكم بقية حياء تمنعكم من اتهام المسلمين بصفة أنتم أسرع الناس إليها ، وهم أنأى الناس عنها ؟

إما أن تحكم القِلّة الكثرة ، وأن يخنع المسلمون لغيرهم ، وأن يتنازلوا فى صَغار عن أحكام دينهم ، وإما علت الصيحات الكذوبة تزعم أنَّ المسلمون متعصبون .

* * *

وراقبتُ انفجار الشعور العام فى « لبنان » ضد حكومة « شمعون » وأخذتُ أتسمع الأنباء من هنا وهناك - أمريكا وإنجلترا وفرنسا - تساند عملاءها وتمدهم جهرة بالسلاح .

والحكومة التى صنعها الاستعمار الغربى تُسخِّر قواها فى الفتك وسفك دماء الأحرار الثائرين ..

والمناطق الإسلامية تكافح - بشرف وشجاعة - ظلم الأوضاع العالَمية والمحلية .

والزعماء المسلمون لا يفتأون يرددون بين الحين والحين هذه الكلمات : إننا لا نقاتل عن الطائفية ، ولا نقاتل ضد دين ...

بل كادوا يقولون : لا نقاتل عن دين ...

إنهم مساكين متهَمون بالتعصب ، فهم يردون الاتهام بهوس ..والذين يوجهون لهم هذا الاتهام هم الرجال الذين صنعوا إسرائيل على أنقاض العروبة والإسلام ..

والذين يريدون تكرير المصيبة نفسها فى لبنان .

إنَّ المرآة العاهرة أقدر الناس على تجريح الغافلات المحصَنات .

لقد علم الأولون والآخرون أنَّ التعصب منكم بدأ ، وإليكم يعود .

أما المسلمون .. فهم أقرب خلق الله إلى فضائل السماحة والتلطف والعدالة والإنصاف .

* * *

ولندع « لبنان » إلى مكان آخر من أرض الله .. لندعه إلى الحبشه مثلاً .

وسترى أنَّ وظيفة الحكم فى « الدولة المسيحية » لا تعنى شيئاً إلا إرهاق الإسلام وانتقاص أطرافه ، وتجميع العداوات الوافدة من الغرب لتلتقى على الكيد والصدِّ عنه .

وسياسة هذه الدول لا تتخلى عن مبدئها العتيد .. تذأب واضرب ، والبس ثياب الحَمَل الوديع .

هاجم الآخرين ثم قل : كانوا ينوون العدوان علينا .

سياسة هذه الدول : أنَّ الجزيرة - لكى تأمن غوائل المد والجزر - يجب أن يتحول البحر من حولها إلى يابسة .

فإذا قيل لها : لقد مرت قرون والبحر هادئ لا يثور ، قالت : ربما ثار فى المستقبل ، وعلى كل حال يجب أن يُقاوَم ظلمه المتوقَع بجميع الوسائل وأن تبدأ هذه المقاومة من اليوم .

وإليك صورة من هذا الاحتكار المفتعَل ، تؤكد خطوط السياسة الصليبية المنتهجة ضدنا .

* * *

فى إفريقيا الشرقية أُمة إسلامية كبيرة بعثرتها الظروف السيئة على أقطار شتَّى ، ثم أدركتها أطماع الاستعمار فنالت منها كل منال .

من هذه الأمة البائسة « أريتريا » التى سقطت فى براثن الاحتلال الإيطالى ، ثم البريطانى .

وما كادت تنتعش قليلاً وترجو الخلاص من كلا البلاءين حتى تحركت نحوها الحبشة تطلب أن تضمها إليها فيما يسمى « الاتحاد الفيدرالى » .

وهَبَّ الجمهور الساخط يطلب الاستقلال بأمره ، والنجاة من غول التعصب الحبشي القائم .

بَيْدَ أنَّ الأحباش كانوا بالمرصاد لهذه الحركات .

فأرسلوا رجالهم بالخناجر والمسدسات يقتلون الأحرار ويبثون الرعب .

وعندما حاول أحد الزعماء الذهاب إلى منظمة الأمم المتحدة لعرض قضية بلاده اغتاله الأحباش وهو على أهبة السفر .

ثم التقى الساسة الأحباش مع الساسة العالميين على أمر قد قُدِّر .

فضُمت « أريتريا » المسلمة إلى الحبشة .

وشرع هؤلاء - فور تسلمهم مقاليد البلاد - في إزهاق روح الإسلام وقتل كل كرامة لأهله !

والغريب أنَّ دول الجامعة العربية وافقت على هذا العمل المنكر .

لماذا ؟ كى لا تُتهَم بالتعصب .

وكادت المأساة تتكرر فى « الصومال » . القُطر الآخر الملاصق للحبشة .

وشرع الإمبراطور الإفريقى مع رجالات أمريكا وأوروبا يبيِّتون الشر لذلك الشعب الناهض .

ولا يزال الكفاح دائراً ، وليس يعلم إلا الله عقباه .

ولا بأس أن ننقل هنا نُبذاً من كتاب « مؤامرة إفريقيا » لـ « أحمد بهاء الدين » .. يكشف جانباً من أطراف الكفاح الطويل الذى يحمل الصومال عبئه ليفوز بحريته وعقيدته معاً .. قال :

« هذا الصراع الذى يدور له الرأس .. هذا الصراع الذى تشترك فيه إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا .. ليس كل شئ فى هذا البلد الصغير .

فالصومال له جارة أكبر وأقوى ، هى أثيوبيا .

قد كان المفروض أن تجد الصومال فى جارتها الإفريقية نصيراً ومساعداً لها .

كان المفروض أن تجد فى جارتها الإفريقية جداراً تسند ظهرها إليه إذا تكاثر عليها الطامعون .

ولكن الظروف السياسية - مع الأسف - جعلت من هذه الجارة مصدراً آخر للخطر على الصومال . وطامعاً آخر يشترك فى الصراع فى هذا البلد الصغير .

والأسباب من بينها - مع الأسف - أنَّ أثيوبيا مسيحية ، والصومال مسلمة .

والأصل فى هذا العصر أنَّ الدين لا يجب ألا يكون قضية سياسية ، ولا سلاحاً سياسياً .

ولكننا سوف نرى بعد قليل كيف أنَّ الاستعمار هو الذى لجأ إلى السلاح ، وهو الذى بدأ باستغلال الدين .

ومن بين هذه الأسباب -أيضاً - أنَّ أثيوبيا مرتبطة إلى حد بعيد بالسياسة الغربية عموماً ، والأمريكية بوجه خاص .

فأثيوبيا غاصة بالخبراء الأمريكيين والضباط والطيارين الأمريكيين .

وهى مرتبطة بمعاهدات كثيرة للمساعدة الفنية والاقتصادية والعسكرية .

فهى الدولة الإفريقية التى يظهر فيها النفوذ الأمريكى أكثر مما يظهر فى أى بلد إفريقى آخر .

ومن بين هذه الأسباب - أخيراً - أنَّ أثيوبيا لها مطامع إقليمية فى الصومال .

فعندما انتصرت القوات الإنجليزية سنة ١٩٤١ على القوات الإيطالية وطردتها من الصومال ، ومن الحبشة على السواء ، بقيت هناك حتى عاد الإمبراطور هيلاسلاسى إلى عاصمته « أديس أبابا » فانسحبت إنجلترا من « أثيوبيا » وبقيت الصومال حتى سنة ١٩٥٠ عندما تقرر وضعها تحت وصاية إيطاليا .

وقبل أن تنسحب إنجلترا من الصومال ، قامت برسم خط حدود بين الصومال وأثيوبيا ، وصفته بأنه خط مؤقت .

وبمقتضاه انتزعت منطقة « أوجادين » من الصومال وأعطتها أثيوبيا .

ومن ذلك الوقت وكل المباحثات التى تجرى لتسويتها تفشل .

وأثيوبيا - بالذات - ليست متلهفة على الوصول إلى حل .

فالأوجادين على أى حال فى يدها ، وكل يوم يمر يثبِّت أقدامها هناك .

وفى سنة ١٩٥٥ ، فوجئت الصومال - كما سبق أن ذكرنا - باتفاقية سرية أخرى تُعقد بين إنجلترا وأثيوبيا تعطيها بمقتضاها مناطق أخرى صومالية كانت تحت الإدارة الإنجليزية .

والأوجادين منطقة مسلمة كلها ، وسكانها جميعاً صوماليون ، ليس بينهم ولا أقلية من الأحباش .

ومن ذلك الوقت ثار الصوماليون على أثيوبيا وأصبحوا يعادونها ويشكون فى نواياها ، كما يعادون الإنجليز ويشكون فى نواياهم .

وقد ظهر دور أمريكا فى هذه القضية واضحاً ، عندما نوقشت قضية الحدود بين الصومال وأثيوبيا أمام لجنة الوصاية فى الأمم المتحدة .

لقد تقدم السيد « رفيق عشى » مندوب « سوريا » بمشروع قرار خاص بمشكلة الحدود يوصى فيه بتعيين وسيط فى حالة فشل المفاوضات بين إيطاليا وأثيوبيا لتسوية الحدود بينها وبين الصومال .

وقد نشط الوفد الأمريكى فى الاتصال بوفود الدول للتصويت ضد مشروع القرار السورى .

وقام « كمال الدين صلاح » والسيد « رفيق عشى » بالاتصال بالوفود للحصول على تأييدها ، وقد عاونهما فى ذلك مندوبو الهند ، وسلفادور ، وهايتى .

وكان يتزعم الحملة على مشروع القرار مستر « مولكاهى » عضو الوفد الأمريكى الذى يُعتبر مستشار وزارة الخارجية الأمريكية فى شئون شرق ووسط إفريقيا الاستوائية ، وذلك لسابق خدمته فى أريتريا .

ولما كانت الولايات المتحدة قد بدأت تبدى اهتماماً واضحاً بهذه المناطق ، وأتخذت من أثيوبيا مركزاً لمباشرة نشاطها وتنفيذ سياستها الإفريقية ، فقد كان من المنطق أن يعارض الوفد الأمريكى فى مجلس الوصاية فى أى إجراء فيه تعريض أو إحراج للحبشة .

وفى أثناء مناقشة خاصة بين « كمال الدين » ومستر « مولكاهى » ذكر الأخير أن مشروع القرار السورى سيكون له رد فعل سيىء فى الحبشة ، لأنه مقدَّم من دولة إسلامية !

والأحباش يشعرون أنهم جزيرة مسيحية فى بحر إسلامى .

ويشعرون بالأخطار التى تهدد كيانهم من كل جانب !

ويبدو أن الفقرة الأخيرة من كلام المندوب الأمريكى كانت فلتة لسان .

فقد حاول بعد ذلك أن يفسرها بمعنى آخر ، وأن يقول إنَّ هذا تفكيره الشخصى .

فأجابه « كمال الدين » بأنه لا مبرر لمثل هذا الشعور أو التفكير ، وأن الاعتقادات الدينية وحدها ليست أساساً تُبنَى عليه تصرفات الدول .

ثم إن رفض مشروع القرار السورى معناه بقاء مشكلة الحدود معلّقة مع ما يؤدى إليه ذلك من متاعب وعدم استقرار فى هذه المنطقة .

وقد وافق المجلس على الاقتراح السورى .

على أننا يجب أن نقف لحظة عند فقرة هامة وردت فى كلام المندوب الأمريكى عن شعور الحبشة بالأخطار التى تتهدد الحبشة من كل جانب ! ..

ما هى الأخطار التى تتهدد الحبشة من كل جانب ؟

إنَّ كل الدول المحيطة بها إما مستعمرات ، أو دول مستقلة أقل منها قوة .

ولم يعرف أحد أنَّ هناك دولة واحدة فى هذه المنطقة لها مطامع فى أى مكان على الأرض ..

إنها كلها شعوب تريد أولاً أن تستقل أو أن تحل مشاكلها الداخلية .

ثم إن أثيوبيا فى منطقة بعيدة عن التوتر الدولى والحروب الباردة .. فهى نموذج للبلد الذى لا تتهدده أى أخطار ...

ولكن السياسة الأمريكية - فيما يبدو - يهمها إفزاع دولة كأثيوبيا وإقناعها بأنَّ هناك أخطاراً وهمية تحيط بها ، وتخويفها كذباً بأنها جزيرة مسيحية فى بحر مسلم !!

فبذلك تستطيع أن تتغلغل ، وأن تبنى فيها قواعد عسكرية إلا إذا أقنعتها بأنها للدفاع عنها « ضد خطر ما » ..

وقد أثمرت هذه السياسة حتى فى المسائل الخارجية البعيدة نسبياً عن أثيوبيا .

فعندما نوقشت قضية الجزائر فى الجمعية العامة للأمم المتحدة صوّتت أثيوبيا ضد طلب إدراج القضية ، كما صوّتت الولايات المتحدة .

وكان غريباً أن تُصوِّت دولة إفريقية قاست الاستعمار خمس عشر سنة ضد حرية شعب إفريقى آخر يكافح بالدم ضد الاستعمار ! ..

إنه موقف غريب ، جاء ثمرة السياسة الأجنبية ، التى تريد أن تخلق العُقَد النفسية ، وتخلق أسباب التنافر بين الدول الإفريقية بعضها من البعض الآخر ... رغم أنها دول متحدة المصالح فى واقع الأمر » .

* * *

وأغرب من ذلك التعاون الوثيق بين حكومة الحبشة النصرانية وإسرائيل !

لقد وحدت عداوة الإسلام بين الخصوم الأقدمين .

فإذا سلسلة الغدر تستحكم للإجهاز عليه ... واسمع إلى هذه الحقائق :

١ - إنَّ الاستعمار جعل من اليهودى « ناتان مادين » الإسرائيلى مستشاراً قانونياً عاماً للحكومة الأثيوبية .

وهو أيضاً النائب العام المختص بوضع قوانين الدولة ...

٢ - أعادت وزارة الخارجية الأمريكية الدكتور « سبنسر » اليهودى الأمريكى إلى أثيوبيا ليكون مستشاراً لوزارة خارجيتها .

وهو يشغل هذا المركز منذ عهد الرئيس روزفلت (عام ١٩٤٤) .

٣ - إنَّ مستشار وزارة التجارة والصناعة هو البريجادير « فرانكو ستافورد » وهو يهودى إنجليزى أعارته بريطانيا لأثيوبيا لكى يُشرف فيها على شئون التجارة والصناعة [١] .

* * *

---

(١) من منشورات الهيئة العربية العليا لفلسطين .

لقد ضحكتُ ضحكة العارف بما هنالك عندما سمعتُ اقتراح فصل الدين عن الدول يُعرض علينا - نحن المسلمين - لنأخذ به ونستريح إليه !!

فى هذا العصر الذى استطاعت شتّى النحل أن تُسخِّر كل ما ينطوى عليه معنى الدولة من سُلطة ونفوذ لدعم كيانها . وتوهين غيرها ، يُقال للمسلمين : من الخير فصل الدين عن الدولة .. !

فى هذا العصر الذى استُهدف الإسلام فيه لحرب اشتركت فيها شعوب مضللّة . وحكومات جشعة مجرمة ، والتقت على المكر به سطوة القهر ولين الخداع ، يقال لنا : من الخير فصل الدين عن الدولة .. !

والحقيقة الكالحة أنَّ الدين فى أوروبا لم يستغل الدولة لبلوغ أهدافه .

بل إنَّ الدولة هى التى استغلته لبلوغ مآربها ! ..

أى إنَّ الدين فى منطق الاستعمار لا يعدو أن يكون مطية لأمانيه السافلة فى خنق الحريات ، وسحق الأمم ، وتسويغ الجور ، وإبقاء قارات بأكملها بقرة حلوباً لحفنة من المغامرين والخطفة !!

إنَّ من حق المسيحية أن تُبشِّر بعقائدها ، وأن تعرضها على كل ذى لب كى يقبلها أو يرفضها .

وذلك حق نقرره لكل دين .

لكننا نشمئز من أن تقوم الأديان بدور الوسيط فى سياسة الغشم والغصب وسرقة المال وسفك الدم ...

ووددتُ لو أنَّ المسيحية نزَّهت نفسها عن القيام بذلك الدور . لكنها لم تفعل.

وهاك فصلاً يميط اللثام عن بعض المناكر التى تُقترف فى ذلك المجال :

الدين فى خدمة البترول [1] ..

قسيس إيطالى اسمه « فليبينى » يروح ويجىء فى أنحاء الصومال منذ خمس وعشرين سنة .

---

(١) عن المصدر السابق .

إنَّ مهمته الرسمية هى أنه رئيس بعثات التبشير الكاثوليكية فى الصومال .

ولكن الإدارة لا تعامله معاملة قسيس عادى . فهو متمتع بالحصانة الديبلوماسية ، والإعفاءات الجمركية .

وسيارته الخاصة تحمل رقماً من أرقام « الهيئة السياسية » .

إنَّ مهمة هذا القسيس سياسية فى الدرجة الأولى . وكذلك مهمة كل بعثات التبشير !

لقد تعوَّد الشرق منذ زمن بعيد أن يكون شعاره : الدين للّه والوطن للجميع .

وأرض هذا الشرق هى التى أنبتت كل الأديان ، فكان من الطبيعى أن تألف وجود الأديان المختلفة جنباً إلى جنب .

ولم يعرف الشرق أبداً الحروب الدينية التى عرفتها أوروبا مثلاً .

لم يعرف الشرق الحروب الدينية إلا على يد أوروبا التى كانت تبرِّر موجات غزوها للشرق بأسباب دينية ، كما تفعل الآن إسرائيل ..

وفى إفريقيا - بالذات - نجد أنَّ الاستعمار لا يتورع عن استخدام الدين وجعله مطية لتحقيق أغراضه ...

إنَّ الشعب الصومالى شعب مسلم ، منذ أكثر من ألف سنة .

فإذا كان الغرب يحترم كل الأديان ويُقدِّرها كما نحترمها ونقدِّرها نحن فى الشرق .. فلماذا يحاول أن يُخرج هذا الشعب عن دينه ؟

أليس هذا - وحده - عدواناً واستفزازاً وإثارة للمشاكل .. !

فما بالنا إذا كان الأمر ليس قاصراً على الدعوة الدينية فقط .. ؟

ما بالنا إذا كان هذا التبشير الدينى يسير دائماً فى ركاب الاستعمار ، متلوناً بلونه ، متلائماً مع ظروفه ، ملبياً لحاجته ... ؟

فى الأصل كانت أكثر البعثات التبشيرية فى الصومال بعثات بروتستانتية .

فلما دخل الاستعمار الإيطالى ، أخذ يطارد المبشرين البروتستانت ، حتى تخلّص منهم وأفسح المجال أمام المبشرين الإيطاليين ... الكاثوليك ! ...

والآن ... منذ سنوات فقط . أى نفوذ سياسى واقتصادى بدأ يجتاح العالم الغربى على أنقاض النفوذ الاستعمارى القديم ، إيطاليا ، أو فرنسا ، أو إنجلترا ؟ .. إنه النفوذ الأمريكى .

ومن أجل ذلك بدأ زحف المبشرين الأمريكيين - البروتستانت - يغزو الصومال ...

دخلها مع النقطة الرابعة ، وشركات التنقيب عن البترول ، والخبراء !

وكانت هذه معركة أخرى على « كمال الدين صلاح » أن يواجهها ..

عندما ذهب أول الأمر ، كانت السطوة ما تزال فى أيدى بعثات التبشير الإيطالية ، كان « فليبينى » الذى يقيم فى الصومال منذ ٢٥ سنة حتى عرف لغة البلاد ، وأهلها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، هو النجم اللامع والأب الروحى للتبشير .

وكان « أدموندو » هو ابن التبشير وتلميذه البكر ...

إنَّ « أدموندو » ليس إيطالياً ، ولكنه صومالى . صومالى مسلم فى الأصل.

اسمه « محمد شيخ عثمان » ولكنه دخل - منذ كان صبياً - فى مدارس التبشير وارتد عن الإسلام .

ولكنه عندما كبر ودخل الحياة العامة ترك المسيحية وعاد أدراجه إلى الإسلام . وظل أمام الناس - وأمام نفسه - بغير دين ، وبغير اسم ...

والإدارة الإيطالية تهتم بأن تمنح خرِّيجى مدارسها التبشيرية أحسن المناصب وأكبر المرتبات حتى يظهروا متفوقين على أهلهم وأقرانهم الباقين فى الإسلام ، أملاً فى أن يكون فى هذا دعاية كافية للتبشير ..

أما « أدموندو » الابن البكر للتبشير ، فقد أسست الإدارة له حزباً اسمه الحزب الديمقراطى ، وعيَّنته سكرتيراً عاماً له وأرسلته إلى « روما » ليتمرن فى وزارة الخارجية الإيطالية .. فمَن يدرى ؟ .

لعله يكون فى المستقبل وزيراً أو سفيراً ، فلا ينسى أن يكون عميلاً لأرباب نعمته .

إنه نموذج حى فريد من نماذج الأشخاص الذين يصنعهم الاستعمار .

فبعد أن يسلبهم كل مقومات الشخصية السليمة ، فى التاريخ والكيان ، والبناء النفسى ، يدفعهم إلى المراكز العليا والمسئوليات ، لأنه يعرف أنّ لا خطر منهم قط بعد أن انتزع منهم كل صفحات الشخصية والاستقلال ! ..

ولكن حركة التبشير الإيطالية لم تلبث أن بدت ضعيفة خائرة إزاء الغزو البروتستانتى الجديد الآتى مع الأمريكان ..

لقد وصلت إلى الصومال بعثتان على التوالى ، الأولى ، بعثة (Somulia minuaite moniin) يرأسها قسيس بروتستانتى اسمه « ويلبرت لند » ...

والثانية برئاسة قسيس آخر اسمه « موردیكر » ..

وقد بدأت كل بعثة بإقامة مركز تعليمى لدراسة اللُّغة الإنجليزية والدين .

وبدأ رئيسا البعثتين يهاجمان الدين الإسلامى والمعتقدات الإسلامية علناً .

وبسرعة تُحسد عليها البعثتان ، بدأتا تتدخلان فى القضايا المحلية والسياسية وفى مقدمتها : قضية اللُّغة .

أصبحت كل من البعثتين مركزاً للحملة على اللُّغة العربية وثقافتها وتُراثها ، ومركزاً للدعوة الاستعمارية السياسية إلى كتابة اللُّغة الصومالية بحروف لاتينية .

بل إنّ القسيس « موردیكر » أعلن أنه لن يقبل فى مدرسته مَن يتعلم اللُّغة العربية ....

حتى إنّ بعض الشباب الراغبين فى دخول مدرسة التبشير لمجرد دراسة اللُّغة الإنجليزية ، كانوا يخفون دراستهم للُّغة العربية حتى لا يتعرضوا للطرد !

وفى خارج العاصمة ، أحضر « موردیكر » اسطوانات تتكلم باللُّغات : العربية ، والصومالية ، والإنجليزية ، داعية الأهالى إلى ترك الدين الإسلامى ، واعتناق المسيحية .

فكان الأهالى فى بعض المناطق يتركونها تصرخ ، وفى منطق أخرى كانوا يقذفونها بالحجارة ، ويطردونها من قراهم .

إنه من المحزن أن يُستخدَم دين ما ضد الحرية والحق ، وضد الخير والسلام .

وموقف المسيحية من معاضدة الاستعمار سوف يجر عليها مخازى كثيرة .

انظر ما كتبه « إدلاى ستيفنسون » عن الحالة فى إفريقيا .

قال : إنَّ هذه القارة الواسعة الممتدة حوالى خمسة آلاف ميل لا تستقر فيها الأحوال .

ففى الشمال حيث مراكش ، وتونس ، والجزائر ، ثارت الكثرة العربية على القلّة الفرنسية .

وفى الجنوب تتحكم جماعة من الأوروبيين وهى فى حالة خوف دائم من أن تكتسحها جماهير الإفريقيين .

ومن الوضح أن المشكلة ستبقى ما دام هؤلاء مصممين على اكتساب حريتهم كاملة ، وإتاحة الفرص الاقتصادية الواجبة لهم .

وفى المناطق المزدحمة بالسكان البيض مثل « كينيا » و « روديسيا » ينظر الإفريقيون بشراهة ! إلى الأرض الجيدة التى يحتفظ بها الأوربيون .

ولقد حكى لى أحد المبشرين قصة ذلك الإفريقى الذى تحدث عن أحوال قومه بصراحة تامة قائلاً :

« عندما جاء الأوربيون كانوا يملكون « الإنجيل » وكنا - نحن - نملك : الأرض . أما الآن فقد أعطونا الإنجيل وأخذوا منا الأرض » .

نعم .. أعطوهم الإنجيل وأخذوا منهم الأرض .

هذا هو العوض العادل الذى ارتضاه الفاتحون المتدينون !!

الفاتحون الذين يسمون طلب الحرية مشكلة ، والتطلع إلى الأرض المغصوبة شراهة ، وقتال المغيرين عليها رجعية !!

ولعلهم عندما أعطوه « الإنجيل » لفتوا أنظارهم بقوة إلى الآيات المشهورة فيه :

« مَن ضربك على الخد الأيمن ، فأدر له الأيسر ، ومَن سخَّرك ذراعاً فامش معه ميلاً ».

لفتوهم إلى هذه الآيات لتكون أساس السلوك الواجب على السود بإزاء البيض أو الواجب على المسلمين بإزاء أهل الكتاب أجمعين من صليبيين وصهونيين .

وأخيراً نثبت هنا ما سجَّله الشهيد « كمال الدين صلاح » مندوب مصر فى هيئة الوصاية الصومالية .

فقد وعى ملاحظتين مهمتين يجب أن نحفظهما نحن وأن نتدبرهما :

الأولى : أنَّ كل بعثات التبشير ، والشركات والهيئات الأمريكية التى تعمل فى الصومال تخضع لإشراف ورياسة سفير الولايات المتحدة فى « أديس أبابا » عاصمة الحبشة .

تلك العاصمة التى تُعتبر الآن نقطة الارتكاز الأولى لأمريكا فى قلب إفريقيا .

وأنَّ سفير الولايات المتحدة فى « أديس أبابا » كان فى الأصل قسيساً من رجال التبشير .

والثانية : أنَّ كل البلاد التى اختارتها بعثات التبشير لممارسة نشاطها الدينى تتركز فى مناطق معيَّنة - مناطق تُنقَّب فيها الشركات الأمريكية للبترول - أو تبحث فيها عن مغنم اقتصادى - .. أى أنَّ وجه التبشير ما يبدو إلا مقنَّعاً ، وأن أداته ما تسير إلا فى ظلال أعمال أخرى .

وهذه السيرة الدائمة اللازمة لسياسة أمريكا هى التى جعلت التعاون المسيحى الإسلامى يفشل ، وهى التى جعلتنا نقلِّب النظر فى مؤتمرها . ثم ننقلب آسفين .

* * *

ذئاب الحبشة تنهش الإسلام

أمة تُذبح . ودين يذوب .

أما الأمة فتسعة ملايين إنسان فى الحبشة .

وأما الدين فهو الإسلام الحنيف وراء ستار لا يُخترق ، وداخل سجن معتم مترامى الأطراف تقع هذه المأساة التى تمزق الأكباد .

تُفتن أمة عن دينها لترتد عنه بالجوع والتشريد والحديد والنار ..

ودون أن يُسمع لها أنين ، أو تُشهد لها عَبرة ، أو يُسمح لأحد من المسلمين فى أنحاء الدنيا بكلمة عطف فضلاً عن صيحة زجر ، وصرخة إنذار وتألم .

لقد كنتُ أعرف - كما يعرف الثقات - أنَّ ثلثى الحبشة مسلمون .

وكنت أدرك - على سبيل الإجمال لا التفصيل - أن هذه الكثرة المنكودة تعانى ضغطاً يوشك أن يكتم أنفاسها حتى جاءنى نفر من المجاهدين الفارين ، يحدثنى بالهول الذى ترك خلفه ، يصلاه جمهور المسلمين البائسين .

وآثر أن يودع ما لديه رسالة تنضح بالأسى والصدق ، وتنطق بما هنالك من مظالم تقصم الظهور .

وهذا نص الرسالة [1] .. أنشرها كما جاءتنى ، لعلها تُعرِّف الجاهلين ، وتُذكِّر الغافلين .

---

(١) وهو النص الذى قدمه لنا عن المجاهدين من مسلمى الحبشة الأستاذ محمد يوسف إسماعيل نزيل القاهرة الآن .

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

سيدى ..

نحن من « هرر » طالبان فى الأزهر الشريف .

ومن حديثنا هذا الموجز ستعرفون لماذا لجأنا إليكم .

إننا نود أن نُقدِّم إليكم عرضاً سريعاً عن حال المسلمين فى الحبشة .

ولكى تأخذوا فكرة مختصرة تتعرفون منها على حال المسلمين فى الحبشة وما هم فيه من اضطهاد ، وعلى مستقبلهم وما يبيِّت لهم من عسف .

نأسف إذ ننقل إليكم ما قاله « إمبراطور الحبشة » فى « الكونجرس الأمريكى » فى أثناء زيارته للولايات المتحدة منذ سنوات عندما سُئِلَ عن أهدافه وبرامجه لنهضة بلاده قال :

« إنَّ أهم الأهداف التى نسعى إليها هو توحيد الدين واللُّغة فى بلادنا ، وبدون ذلك لا يمكن أن نحقق شيئاً من التقدم » .

ولما سُئِلَ عن المسلمين قال :

« نعم .. توجد هناك أقلية مسلمة فى الجنوب (إقليم هرر) اعتنقت الإسلام بتأثير الأجانب ، وقد وضعنا لها برامج منذ اثنى عشر عاماً ، فلا يمضى وقت طويل إلا وقد عادت إلى حظيرة دين آبائها » .

هذا ما قاله إمبراطور الحبشة الذى يملك مصير الشعب هناك ، وهو الحديث نفسه الذى تعرَّض له فى خطاب العرش عند افتتاح البرلمان الصورى فى سنة ١٩٥٧ ، وإن كان فى صورة مقنَّعة .

فإلى أى مدى يمكنكم التنبؤ بما قد يصيبنا فى المستقبل إذا كانت هذه هى إرادة الإمبراطور الممتلىء بروح العداء والمقت والكراهية للإسلام ؟ والذى يجعل من هذا كله وسيلة لدعم سلطانه فى نفوس المسيحيين ، واكتساب احترامهم ومحبتهم « كحامى حمى المسيحية » و « منقذ الصليب المقدس » .

وهى إرادة لها جميع الإمكانيات لتنفيذ ما ترسمه ، إذا عرفنا أنه الحاكم المستبد المطلق الذى لا يقف فى وجهه أحد .

وتؤيده فى ذلك الكنيسة التى تدعم فكرة كونه المختار من الله ليحمى الحبشة « المسيحية » من « المسلمين » والتى تثبتها فى عقول المسيحيين هناك بكل وسيلة .

وهى بذلك قد أعطته السُلطة الدينية إلى جانب سُلطاته الدنيوية .

* * *

والواقع أنّ محاربة الإسلام والمسلمين فى الحبشة لم تبدأ فى عهد « هيلاسلاسى » ، بل تمتد جذورها إلى زمن بعيد حيث كان الصراع مستمراً بين « هرر » معقل الإسلام فى ذلك الجزء من إفريقيا ، وبين الحبشة المسيحية .

ففى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر حدثت معارك رهيبة بين « هرر » والحبشة المسيحية .

استولى فيها المسلمون على أراضى المسيحين « شوا ، عندار ، تجرى ، فوجام » وغيرها من البدان ، وحكموها سنين عدة .

وأشهر هذه المعارك حملة الإمام « أحمد بن إبراهيم » القائد الهررى ، ومن بعده الأمير نور .

ولم يتمكن المسيحيون قط من غزو أراضى المسلمين إلا فى أواخر القرن التاسع عشر عندما بدأت المنافسة بين الاستعماريين الغربيين فى ابتلاع إفريقيا .

وخاصة شرقى إفريقيا الذى بدا جلياً خطورة مركزه الاستراتيجى بعد حفر قناة السويس بالنسبة لحماية المصالح التجارية .

وبذلك سارعت كل من فرنسا ، وإيطاليا ، وبريطانيا إلى احتلال السواحل الشرقية للقرن الإفريقى .

وكانت البرتغال إحدى الدول الاستعمارية التى كانت تطمع من وقت طويل فى احتلال « هرر » لولا فشل جميع محاولاتها .

ولم تكن هناك وسيلة إلا استغلال العداء التاريخى والدينى فى نفوس الأمهريين ضد الهرريين ، فحملتهم بذلك على إثارة حرب كان هى مموله تمويلاً هائلاً .

فسقطت أقدم مدينة فى شرق إفريقيا ، وأكثرها مدنية وأكبر معقل من معاقل الإسلام فيها .

وقد وقف إلى جانب الأحباش فى هذه الحرب جنود البرتغال ، وعشرات المدافع الثقيلة ، وكثير من الأسلحة الخفيفة .

على حين لم يكن للهرريين غير بضعة مدافع (أقل من عدد أصابع الكف) ، وكان اعتمادهم على الأسلحة التقليدية ، وبذلك استشهد أفراد المدفعية ، وكان معظمم من المصريين الذين استوطنوا هرر . بعد انسحاب الحامية المصرية قبل ذلك بثلاث سنين .

وانحسرت المعركة عن انهزام الجيش الهررى ، والحق أنه استُشهِد كله .

وهكذا سقطت هرر العاصمة سنة ١٨٨٧ ، ودخلها الأمهريون ولم يكونوا يفكرون فى حكمها ، بل فى فرض جزية على أميرها مع غرامة حربية ، وعلى ذلك تم الاتفاق ووقعت المعاهدة ، ولحين استفياء الدَّيْن تبقى هرر محتلة مدة أقصاها عشر سنوات ، ولم تمانع البرتغال فى ذلك ما دام الوقت يتسع .

وهنا بدأ الصراع بين كل من بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا فى البرتغال منافساً خطيراً . فعملتا بجميع الوسائل حتى أزاحتاها عن الميدان ، ووقعتا معاهدة مع الإمبراطور « منليك » تتعهدان له فيها بإقامة إمبراطورية تشمل جميع الممالك الإسلامية التى لا بد من سقوطها بعد سقوط « هرر » - ذات المكانة العظيمة فى نفوس المسلمين - ، وتعترفان له بمملكة « هرر » ، وبذلك أحلتاه من الاتفاقية الهررية الأمهرية .

والغريب أنَّ بريطانيا وفرنسا كانتا قد حضرتا هذه الاتفاقية .

وأخذتا - مقابل ذلك - أراضى من الجنوب والشرق .

فأخذت « بريطانيا » الجنوب ، واستولت « فرنسا » على الشرق فضلاً عن امتيازات هائلة لهذه الأخيرة فى المديرية الشرقية ، منها مد خط حديدى ، يصل ثغر « جيبوتى » بـ « أديس أبابا » ماراً بالمديريات الشرقية والشمالية ، واحتكاره لمدة تسعة وتسعين عاما فى مقابل مبلغ لا يقوم بنفقات عمارة واحدة .

وجعلت « فرنسا » قاعدة هذا الخط الحديدى مدينة « دريدوه » عاصمة المديرية الشرقية حتى تتمكن من إدراة الإقليم مباشرة .

فكان القنصل الفرنسى فى « دريدوه » ، « هرر » هو الحاكم الحقيقى ، وإن كان القنصلان الإيطالى والإنجليزى يزاحمانه فى هذا النفوذ ، وخاصة فى المديريات الغربية والجنوبية ... ، حيث تتاخم حدودهما إقليم هرر .

وقد اتخذ الصراع الدينى منذ ذلك شكلاً جديداً بإضافة الصراع السياسى إليه .

ودخل الميدان فرنسا وبريطانيا ، وبدأت محاربة الإسلام بوسائل أخرى .

ولم يكن هَمُّ فرنسا أن تبسط نفوذها على الحبشة بقدر ما كان يهمها أن تبسط نفوذها على هذا الإقليم الخصيب الذى كان له أهميته الاستراتيجية والاقتصادية ، والروحية بعد أن وطدت أقدامها بواسطة الأمهريين ، وقدّمت لهم مساعدات عسكرية وفنية ...

وفى أثناء مد الخط الحديدى شُرِّدَ الآلاف من الناس ، وأُحرقت قرى ، وأُبيد الذين أبوا أن يجلوا من أراضيهم دون تعويض أو حماية لحقوقهم .

ولم يسمع أحد عن هذه المجازر الرهيبة ، وكانت تشبه مجازر الأمريكيين فى الهنود الحمر تماماً ...

وأدركت « فرنسا » أنَّ أهم شىء يجب القضاء عليه هو اللُّغة العربية والحروف العربية اللتان ذاقت منهما الكثير فيما استعمرته من الأراضى .

فأوعزت إلى الإمبراطور بفتح باب الهجرة الإجبارية للمسيحيين من ناحية ، واستعملت نفوذها من ناحية أخرى فى التقليل من مكاتب القرآن ، فى الوقت الذى فتحت فيه مكاتب تبشيرية ومستشفيات ومدارس ، ونشرت دعايات باللُّغة الحبشية فى الكتب والمنشورات وغيرها .

وزحف جيش المهاجرين من الشمال ووقعت القرى الهررية تحت أفظع نوع من الإقطاع ، ونظام التبعية ، وصار الناس عبيدا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .

وأرغم الإقطاعيون سكان القرى والفلاحين الذين يعيشون فى أراضيهم على حضور القُدَّاس وحمل صليب خشبى على رؤوسهم كل يوم أحد كنوع من إظهار الولاء لسادتهم !! .

وكانت القيود والسياط هما اللُّغة الوحيدة التى يخاطب بها أولئك الفلاحون المساكين .

ونزلت إلى ميدان التبشير البروتستانتية مع الأرثوذكسية التى كانت تساعدها الحكومة باضطهاد المسلم حتى يلجأ إلى التنصر .

وفعلاً كانت تحصل حالات نادرة من ضعاف النفوس حيث كان يتعمد الأمهريون إعطاءهم أراضى واسعة ونياشين ، بل يضعون تحت تصرفهم كثيراً من الفلاحين الذين كانوا إخوتهم بالأمس .

ودار الزمن ، وعجلة الإقطاع لا تكف عن السحق والدق .

فاستولى « هيلاسلاسى » على العرش .

وكان أول ما فعله هو التخلص من الزعماء الهرريين الذين كانوا لايزالون يطالبون بحقهم فى الجلاء وإعادة ممتلكاتهم وأراضيهم ، فسادت موجة من الجرائم الغامضة والخطف والاغتيال حتى كادت العاصمة تخلو من إنسان يفكر فى أمته وغده بعد أن تركز عليها الاضطهاد بكافة أنواعه .. باعتبارها مقراً لخلاصة الطبقة الوطنية والمثقفة لجميع القبائل فى ريف هرر .

غير أنه - بالرغم من ذلك الاضطهاد والاستبداد ، وانتزاع الأراضى وتجويع الناس ، وكبت حرياتهم - لم يستطعوا قتل الروح الوطنية فى الشعب تماماً .

ولم تكف أصابع المبشرين الفرنسيين - الذين كانوا مدرسين على حساب الحكومة - من الكيد للُّغة العربية بغية محوها ...

بَيْدَ أنهم فوجئوا بالغزو الإيطالى بعد أن كادت محاولاتهم تنجح نوعاً من النجاح .

واستولى الإيطاليون على الحبشة فى أواخر عام ١٩٣٥ . وبذلك توقف أدناً برنامج بُيِّتَ لشرق إفريقيا .

وكان ذلك الاحتلال ضربة قاضية لفرنسا وتلميذتها .

فتحطمت السلاسل والقيود التى كان يرسف فيها المسلمون فى معظم الحالات باعتبارهم الطبقة العاملة التى عليها أن تدفع الضرائب والجباية والعشور ... إلى غير ذلك من وسائل السلب والنهب .

وكان يخول الإقطاعى أن يحكم بنفسه على أى فرد تحت إمرته . ويُقيِّد بالسلاسل ويُقضى عليه بالشنق أحياناً فى بيته دون اللجوء إلى المحاكم .

خرج من سجن « هرر » وحده أكثر من سبعة آلاف شخص . ظل بعضهم مقيَّد الرجلين واليدين على شكل قوس لمدة أكثر من عشرة ، وخمسة عشر عاماً .

فلما أفرج عنهم لم يعودوا إلى حالتهم الطبيعية . إذ تشكَّل العمود الفَقرى بذلك الشكل القوسى .

واختفت السياط الرهيبة التى يزن الواحد منها أكثر من خمسة وعشرين رطلاً وهى عبارة عن سيور جلدية مضفورة بإحكام تتدرج فى الدقة ؟؟ حتى الطرف .

واختفى الرق أيضاً .

وتنفس المسلون الصعداء ، إذ وقفوا لأول مرة منذ أكثر من خمسة وأربعين عاماً سواسية مع المسيحيين . وأعيدت لهم معظم أراضيهم . وبدأوا يشعرون بأنهم بَشر .

ونشطت حركة التجارة التى كانت قد ماتت تماماً . كما افتتحت المدارس العربية وظهرت الصحف المحلية . وجىء بمدرسين من طرابلس الغرب .

ولكن هذه الفترة لم تطل .

فما إن أطل شهر مايو من عام ١٩٤١ حتى عاد الأمهريون فى ركاب البريطانيين وحدثت عدة ثورات تولت بريطانيا إخمادها بوحشية .

وانبعث من جديد عواء السلاسل ، وفرقعة السياط . وعادت شهوة الانتقام والسيادة أعنف من ذى قبل . كأنما يستدركون الأيام التى فاتتهم إبّان الاحتلال الإيطالى .

وانطلقت الكنائس معلنة لا عن التسامح والأخوة . بل عن الحقد والكراهية .

وبانطلاقها انطلقت كل الأشياء التى كانت تجعل من المسلمين عبيداً وخدماً .

فأزيحوا عن الوظائف التى كانوا يشغلونها . وسُرِّح الجند منهم والشرطة . وصودرت الأملاك من جديد . حتى تلك التى وهبتها الحكومة الإيطالية عوضاً لمن لحقتهم خسائر مادية .

ولكم أن تتصورا مدى البغضاء التى امتلأت بها نفس « هيلاسلاسى » حين رأى الجيش الذى هزمه فى معركته ضد الإيطاليين (وكان معظمهم من المسلمين الطرابلسيين والصوماليين وغيرهم) .

وهذا من الأسباب التى جعلته عازماً على استئصال شأفة الإسلام والمسلمين فى الحبشة بأى ثمن . وذلك ما أشار إليه فى الكونجرس الأمريكى متحدثاً عما زعمه أقلية مسلمة تعيش فى الإقليم الجنوبى . وأنه وضع لها برنامجاً خاصاً .

وهنا - فقط - لم يتوخ الدقة فى التاريخ . فبدلاً من اثنتى عشرة عاماً كان أولى به أن يقول : خمسة عشرة عاماً . وهو الوقت الذى تنازلت فيه الإدارة البريطانية له عن إدارة هذا الإقليم .

ومنذ ذلك الحين وضع خطة جديدة بدأها بالمصادرات الجَماعية للأراضى التى كان الإيطاليون قد أعادوها إلى أصحابها الحقيقيين . ثم مطالبة ملاك الأراضى الصغار بضرائب السنين الخمس وما قبلها حتى عجز صغار الملاك عن الدفع . فاستولى عليها . ووزعها على عائلته . وهى بدورها بدأت تؤجرها بأجور مرتفعة للفلاحين .

ثم عزل سكان المدن عن الريف . وحرَّم على أهل المدن الانتقال إلى القرى إلا بإذن خاص . كما عزل المديريات بعضها عن بعض . وفرض قيوداً ثقيلة على التنقل بينها ، وذلك إلى جانب الدعايات الكنسية ضد المسلمين . ويتحمل كل مسيحى حماية الدولة ...

وبذلك أصبح لكل فرد منهم حق اتهام أى مسلم لأقل سبب وتقديمه للمحاكمة .

وأى موظف لا يركع له المسلم فى مكتبه حينما يدخل عليه يعتبر ذلك إهانة موجهة إلى السُلطة العليا التى تمثل الذات الملكية ، وجزاؤه أن يُجلد ٤٥ جلدة - ربما لا يبقى حياً بعد عشرين منها - وأن يُحبس مدة تتراوح بين سنتين وخمس سنين .

وأى كلمة يقولها المسلم يمكن أن تُفسَّر تفسيراً سياسياً ضد الدولة . وتُعتبر جريمة يُعاقَب عليها .

وبذلك تعرَّض المسلمون للون جديد من الإرهاب .. أساسه الظنة والاتهام .

وإذا كان الحاكم والقاضى والشرطى وسائر الموظفين مسيحيين ، وجميع السلطات مسيحية فإلى أى مدى يمكن أن يتعرض المسلم للظلم ؟

وأى إجحاف واضطهاد يقعان عليه دون أن يملك رداً . أو يستطيع دفاعاً ؟

والمحاكم دائماً ملأى بالمتهمين . والسجون غاصة بالمظلومين وكثرتهم من المسلمين .

فهم دافعو الضرائب والغرامات . ومتحملو الخسارات . وهم الذين أرهقتهم الأثقال الجائرة . فعجزوا عن الدفع .. فاستضافتهم السجون .

وما أسهل أن تُنسب الحوادث التى تُرتكب - ولا يُعرف فاعلها - إلى المسلمين ! .

وهاكم حادثة وقعت سنة ١٩٤٦ :

فى قرية صغيرة من قرى « كمبولتشا » - إحدى المراكز شرقى العاصمة «هرر» - وُجِدَ جندى أمهرى قتيلاً .

فبعثت الحكومة كتيبة مؤلفة من مائتى رجل بكامل أسلحتهم . واقتحموا القرية ليلاً وقتلوا منها أكثر من ثمانين شخصاً ، منهم الشيخ والطفل والمرأة .

وأحرقوا الأكواخ عن آخرها . ونهبوا المواشى . وزجوا بالعشرات فى السجون وذلك كله قبل أن يتحروا عن الحادث .

وبعد مضى مدة تبيَّن أنَّ القاتل كان زميلاً للقتيل ... فى فرقته نفسها فاتهمه بعلاقته بامرأته .

وهكذا ذهب أولئك المساكين ضحية الخيانة والانتقام والحقد والكراهية . هذا واحد من مئات الأمثلة التي حدثت ولا تزال تحدث فى كل وقت ما دام هناك حاكم أمهرى . ومحكوم مسلم . وما دام المسلمون يقرأون القرآن العربى .

ولقد كانت خلال هذه السنوات ثورات ضد هذا الظلم ، ولكن قوى الشر والاستعمار . وأصحاب المصالح تكتل ضدها ، فتخمدها .

ففى « جرسم » مثلاً - إحدى المديريات الهررية التسع - ثار الشيخ عبد القادر آدم ضد الضرائب الفادحة التى فُرضت على هذه المديرية ، وضد

الأوامر التى كان تقضى بأن يخبز نساء المركز المسلمات جوالقاً من الدقيق كل أسبوع للمعسكر ويحملنه إليه .

وبعد أن دخل رجال الثورة الغابات للمقاومة جمعت الحكومة الشيوخ والأطفال والنساء فى أكواخ كل عشرين أو ثلاثين منهم فى كوخ .. وهو يُبنَى عادة من الحشيش أو القصب ، وسكبت عليها صفائح البنزين فأحرقت جميعاً بمن فيها .

والذى أمر بهذه الجريمة المروعة لا يزال موجوداً ، وهو وزير الحربية الرأس « أبيا أراغى » .

أما المواشى فقد أبيدت بالسم والرصاص .

وكان هذا العمل انتقاماً من الرجال الذن لجأوا إلى الغابات .

ومن جهة أخرى لبَثّ الرعب فى القُرى المجاورة .

وكانت هذه الأعمال تسير جنباً إلى جنب مع جميع أساليب الاضطهاد الوحشية سواء فى المحاكم أو فى السجون أو فى المصالح الحكومية . بل فى المستشفيات ، والمراكز التبشيرية .

وللمبشر الأرثوذكسى - وهو الدين الرسمى للحكومة - حق مطالبة إعدام أى مسلم دون إبداء الأسباب أحياناً ، واتهامه بانتقاص الدين الرسمى أحياناً أخرى .

وهذه الأشياء لا تظهر فى المدن بالطبع ، بل تتركز فى القرى النائية البعيدة عن العمران ، ولهم فى تكتم الأخبار ألف وسيلة ووسيلة .

وما إن أهَلَّ عام ١٩٤٨ ، وقد بلغ حداً بعيداً ، حتى هبَّت « هرر » تطالبُ بحقوقها العادلة ، ومساواة أهلها بالمسيحيين مما اعتبرته الحكومة وقاحة وخيانة .

فجرِّدت له ثلاثة ألوية من الجيش اقتحمت المدينة ، وأعملت فيها السلب والنهب والتعذيب .

واشترك معهم رجال الشرطة والمدنيون - وقد رُخِّص لهم باقتناء السلاح فى هذه الحملة الإرهابية .

فصودرت المتاجر والمدارس والمزارع ، وأقيمت محاكم للتطهير ، واعتُقِل الآلاف ، ووُضِعوا فى معسكرات التعذيب .

وأُخذت أوقاف المساجد وضُمَّت إلى الكنائس ، وأُرسل الزعماء إلى مناطق نائية ، وكان التعذيب وحشياً لم يقتصر على إطفاء السجائر فى الأجساد .

أو تعريض الناس للشمس اللافحة فى حالة جوع وظمأ شديدين ، وقد وُضِعت على مقربة منهم براميل من الماء والطعام .

أو هتك الأعراض على مرأى من الأزواج والآباء ، أو العبث فى ظهورهم بالسياط .

بل تعداه إلى دق « خصيات الرجال » بأعقاب البنادق ، وإلى قذفهم بين أسلاك شائكة تمزق أجسادهم ، والجنود يتلذذون بذلك المنظر الوحشى .

واستُخدِمت كل وسائل العنف والتعذيب فى الاستجواب .

واستمرت هذه الأعمال الفظيعة سبعة أشهر كاملة ، قُتِلَ فيها مَن قُتِل وهَلَكَ مَن هلك بسبب الجوع والبرد .

وفى تلك الأيام قدم وفد مسلمى « هرر » إلى القاهرة ليعرضوا شكواهم على العالَم الإسلامى . فلم يجدوا سنداً ولا نصيراً . والظروف لم تكن فى صالحهم .

والعالَم الإسلامى لم يقدِّم لهم شيئاً بالرغم من أنَّ الوفد عرض أمره على حكومة الحجاز واليمن . وقدم مذكرات إلى الكثير من سفارات الدول الإسلامية وغير الإسلامية .

ومن يومها اعتُبِرت « هرر » منطقة مفتوحة لكل أنواع التبشير - ما عدا الإسلام - إن كان هناك تبشير إسلامى - للتعجيل بتنصيرها .

وعُيِّن لها حاكم عسكرى هو نفسه الذى كان يتولى التحقيق والتعذيب والاستجواب فى تلك الحركة .

وفى « هرر » الآن البعثات البروتستانتينية والكاثوليكية . وبرج المراقبة . والأرثوذكسية والسويدية والمنهجية .

وخُصِّصت مديرية « عروس » للتبشير الأرثوذكسى ولا يقربها أحد .

كما مُنِح رجال الدين هناك - مع السلطات المحلية - حق الإجبار ومطاردة الأشخاص الخطرين (المشايخ) .

ونتيجة لهذه الموجة من الإرهاب والنهب اللذين حدثا فى « هرر » قلّت موارد الناس وهبطت حركة التجارة وكثر العاطلون . وعجز الناس عن دفع أى ضريبة . مما سهّل للحكومة الاستيلاء على الممتلكات والمزارع .

وفى الوقت نفسه افتُتِحت بعض المدارس الأمهرية المسيحية ، وطُلِب إلى المسلمين أن يُدخلوا أبناءهم فيها بعد أن أُغلقت مدارسهم الخاصة .

ومن المعلوم أنّ المدرسين فئة منتقاة من الجزويت والهندوك المعروفين بميولهم العدائية نحو الإسلام .

وعليه فإنّ التحاق أبناء المسلمين بتلك المدارس نوع من الانتحار الدينى والوطنى . فضلاً عن البرنامج الذى يُدرس . والمبثوث فيه كل ما من شأنه إهانة الإسلام والمسلمين .

والتعليم الدينى إجبارى .

وليس للمسلمين حق افتتاح مدارس خاصة بهم . كما أنه يحرم على أى هيئة أو طائفة إسلامية أن تزور أرضهم . أو أن تتصل بهم مثل ما فُعِل بالبعثة الأزهرية قبل بضع سنوات إذ مُنِعت من الدخول إلى منطقة « هرر » .

ومن الأساليب التى تلجأ إليها الحكومة لتقوية التبشير الأرثوذكسى أسلوب غريب .

هو إشاعة أنَّ روح جبريل ظهر فى دير صغير فى قرية « قلبى » بوساطة القسيس ، وهذه القرية تبعد حوالى ٤٥ كيلو متراً من « هرر » وهى أشد مناطق « هرر » ازدحاماً بالريفيين « السذج » ، وأن هذا الروح طلب من المسيحيين من كل بقعة فى الحبشة أن يجتمعوا سنوياً فى هذا المكان ويؤدوا اليمين المقدسة لنصر المسيحية .

وأحيطت هذه الأشاعة بهالة من الخرافات وخوارق العادات التى عرضت لمن زار هذا المكان .

وكان أول مَن استجاب لهذا النداء هو الإمبراطور نفسه مع جميع أفراد عائلته ووزرائه . وقدَّم النزور والتبرعات .

وبذلك صار الذهاب إلى هذا المكان حجاً مقدساً . يفد إليه المسيحيون من كل أطراف الحبشة .

والهدف الذى يرمون إليه من وراء هذا العمل هو جعل هذا المكان أرضاً مقدَّسة يدافع عنها كل مسيحى ضد أى تحرر أو اضطراب من جانب المسلمين الذين تخصهم هذه الأرض . ثم استغلال العاطفة الدينية لجمع التبرعات التى تبلغ سنوياً ثلاثة ملايين من الدولارات مخصَّصة كلها للتبشير فى مقاطعة « هرر » .

ويستعرض القساوسة هناك النتائج أمام الوزراء والكبراء ، ورجال الحكم ، والعائلة المالكة .

ويقدَّمون مَن هداهم اللّه على أيديهم إلى الدين المسيحى - بحسب زعمهم - بين عاصفة من التصفيق وقراءة المزامير والموسيقى . وتُطلق الأعيرة النارية ابتهاجاً بهذا النصر .

ويقوم الجيش باستعراض . ثم تقدَّم العطايا والبركات من الإمبراطور أو أحد أعوانه لأولئك المرتدين . ثم توزع عليهم النياشين .

كل ذلك بُغية التأثير على غيرهم من القرويين الذين يحيطون بهذا المكان .

ولا غرابة فى أن يكون لها تأثيرها إذا كان المسلمون فى تلك النواحى متأخرين وقد أرهقتهم الضرائب والمطالب التى لا تنتهى من جانب الحكومة .

فهم - بذلك - يحاولون التخلص من الأثقال التى عليهم ولا يدرى بذلك أحد .

وليست « هرر » إلا صورة من الصور المنتشرة فى جميع المقاطعات الإسلامية .

وما فى « جمة » من الاضطهاد والظلم لو وُزِّعَ وحده على إفريقيا كلها لأصبحت أرض الجوع والدموع .

فحينما كان « مشفن شاسى » وزير الداخلية حالياً - حاكماً عاماً لمقاطعة « كفا جما » اشترع قوانين جائرة بنفسه ، وشرَّد الألوف ، واغتصب أراضيهم وقتلهم بطريقة غامضة ، لأنهم أبوا التنازل عن أراضيهم واستولى عليها .

والخلاصة أنه دخل « جمة » والمسلون يمتلكون من الأراضى ٩٠ ٪ ، وغادرها وهم لا يملكون غير ٢٥ ٪ . وكان نصيبه فى ذلك من لا شىء إلى ٢٥٪ ، والباقى موزع بين الحكومة والعائلة المالكة والمهاجرين الأمهريين .

ولم يقف فى ظلمه عند هذا الحد من اغتصاب أموال الشعب وأراضيه . بل اخترع طريقة أخرى .

هى أنه لا يُجنَى البُن إلا إذا أصدر أمراً بذلك . فى الوقت الذى تُجنى فيه مزارعه الواسعة . وتُجفَّف وتُباع بأسعار مرتفعة لأنها فى هذه الحال ستكون المعروض الوحيد فى السوق .

وبعد أن ينتهى من ذلك يكون قد تلف أكثر محصول البُن فى المزارع الشعبية إما بتساقطه أو بأن تلحقه الأمطار .

ويستغل هذه الفرصة أيضاً ليبعث سماسرته فى القرى والأرياف لشراء البُن بأثمان زهيدة .

وفضلاً عن ذلك فقد أقام مصافى للبُن . ولا يمكن لإنسان أن يُصَفِّى بُنه فى غير هذه المصافى . ولا يمكن أن تحمل العربات إلا من هذا المكان .

ولا يمكن أن يقدَّر رطل واحد من البُن دون أن يحمل الإيصال الذى يشهد له بأنه قد صُفِّى فى ذلك المكان المعيَّن . ولا عربة دون أن يكون لها إيصال يكون بموجبه قد دفعت ستين دولاراً عن كل شُحنة .

وهذه الأموال الطائلة لا تذهب إلى خزينة الحكومة . بل إلى جيبه .

والمعلوم أنَّ المسلمين من أصحاب البلد وغيرهم من العرب هم الذين يتجرون .

وبذلك يضمن إفقارهم . وهذا ما حدث فعلاً .

وقد أثرى ثراءً فاحشاً حتى أصبح مليونير الحبشة .

فمزارعه التى اغتصبها يستخدم فيها مساجين المسلمين دون مقابل .

وقد ارتفعت درجته لدى الإمبراطور لأنهما يتقاسمان تلك الأرباح .

فمن درجة « صاغ » إلى « لواء » فى الرتب العسكرية .

ومن درجة « فيناز ماترس » إلى « رأس » وهى أكبر رتبة مدنية بعد الإمبراطور ثم عُيِّنَ وزيراً للداخلية .

وفى خلال حكمه رأت « جمة » المسلمة أفظع أنواع الحكم والاضطهاد .

وكان كل مَن يقوم فى وجه التبشير المسيحى يوضع فى حفرة عميقة ، ويقذفه الجنود الأحباش بصخور وحجارة كبيرة .

وقد أجبر المسلمين على بناء كنيسة « مريم » ، واعتقل الذين لم يتبرعوا ، وصادر أملاكهم .

وهو الذى استن بناء كنيسة على مدخل كل مدينة مسلمة حتى يُظن أن الحبشة كلها مسيحية .

* * *

كانت التجارة هى الطريق الوحيد الذى بقى للمسلمين بعد ما سُلبت الأراضى الزراعية من أيديهم .

غير أنَّ قيوداً ثقيلة فُرِضت على هذه التجارة ، ومُنِحت امتيازات التصدير والاستيراد للأجانب .

وبذلك أخذ المسلمون يتدهورون اقتصادياً ومعنوياً .

ليس هذا فحسب ، بل أخذوا يتدهورون خُلُقياً بعد تشعب طرق محاربتهم .

فقد سمحت الحكومة للعاهرات بالهجرة إلى كل من « هرر » و « جمة » وجيميع المدن الإسلامية الأخرى .

وفُتِحت بيوت الدعارة بتشجيع من البلدية المحلية فى كل مقاطعة ، وفى كل شارع كبير من شوراع المدن ، وانتشرت الحانات .

ولعل أفظع منظر هو الذى يطالِع المرء حول جامعى « هرر » و « جمة » حيث تحيط بهما بيوت الدعارة والحانات .

وقد حاول المسلمون أن يحتجوا ، وأن يقفوا ضد هذا الوباء الخُلُقى لكنهم باءوا بالفشل .

وقد أخذ التضييق على إقامة الشعائر الدينية يزداد يوماً بعد يوم فى السنين الأخيرة ، فالأعياد ممنوع إقامتها إلا فى المدن الرئيسية بعد تقديم طلب بالسماح ، ويحدث ألا يُسمح بها فى الوقت المعيَّن ، وتُرجأ إلى ما بعد يومين أو ثلاثة من الميعاد .

أما الحج فأمره معروف ، إذ منعوه صراحة ، ولا يحج إلا عدد محدود توفرت فيه الشروط التى تكفل إغلاق فمه ، وهذا العدد المحدود يقل كل عام .

وفى العام الماضى أصدر وزير الداخلية « مشفن شلسى » ووزير المالية « مكنن هبت ولر » فى العام الماضى أمراً بمنع الحُجَّاج من مغادرة الأرض الحبشية

وفى آخر لحظة سمح الإمبراطور لعدد معين منهم بعد شكاوى وعرائض قُدِّمت وكان هو نفسه وراء هذا المنع !

وفى العام نفسه نُشر كتاب « الإسلام وإفريقيا » لمؤلفه القس الإنجليزى « جودى فريل ديل » ، ترجمه وعلّق عليه القس الأمهرى « جونزى طافطا » .

وهذا الكتاب - من أول حرف فيه إلى آخر حرف - تهجم صريح على الإسلام ، وسب فاضح لنبى الإسلام والتشهير به .

فأجيز المترجم ، واحتفلت به الأوساط الدينية ، وعلى رأسها كاهن الحبشة الكبير « باسليوس » وهو أعدى أعداء الإسلام الذى يدبر هذه المأسى كلها ضد حرية العقائد والأديان ، ومعه الإمبراطور .

* * *

أما لماذا وكيف لا يثور المسلون ؟ فهناك أسباب كثيرة ، ولو أنهم قد فعلوا فى حدود ضيقة لا سيما فى « هرر » .

منها أنَّ معظم المسلمين متأخرون بسبب فرض الحصار على تعليمهم ، وأنهم غير مركزين فى إقليم واحد ، فهم متباعدون جداً وأقاليمهم تفصل بينها أراضى الأمهريين .

ومنها بث روح التفرقة التى تشنها الحكومة فيما بينهم بإحياء التعصب القَبلى ، وإثارة الخلافات الدموية بسبب الحدود الوهمية التى تصنعها كل قبيلة .

ومنها حكمهم حكماً إرهابياً أفقدهم الثقة بأنفسهم ، وقتل فيهم الروح المعنوية ، فضلاً عن عدم حيازتهم للأسلحة .

ومنها يأسهم من مساعدة إخوانهم المسلمين فى العالَم الإسلامى عامة ، وفى مصر خاصة .

ومنها العجز الاقتصادى الذى مُنوا به فى السنوات الأخيرة ، وضغط الحكومة عليهم من كل ناحية ، حتى فقدوا الإحساس بالظلم نفسه .

ولعل الإنسان يفقد إحساسه بكل شيء حينما يصل به الألم والظلم إلى نقطة معيَّنة من التشبع به .

وأسباب كثيرة أخرى صارت عقبة فى طريق تقدمهم وتحررهم .

وآخر صورة من صور التعسف هى إجبار الفلاح الهررى على بيع أبقاره إلى شركة « إنكودا » اليهودية ، بعد أن اكتشف أن هذه الأبقار لا تذهب إلى مصر وبالطبع لم نستطع إزاء ذلك أن نفعل شيئاً .

هذا هو موجز لحال المسلمين فى الحبشة عامة ، وفى « هرر » خاصة .

واسمحوا لنا بتقديم أنفسنا كهاربين من هذا الاضطهاد والإرهاب والظلم والوحشية .

ذلك أننا اشتركنا فى كثير من المقاومات السرية ضد الحكومة ، وانتقلنا إلى كثير من البلدان الإسلامية نفتتح فيها المدارس الصغيرة لتعليم اللُّغة العربية ، ونعرِّف الأهالى ما يهدد مستقبلهم ومستقبل أبنائهم .

وحينما كان يُكشف أمرنا كان إغلاق المدارس والاستجوابات والسجن أحياناً هو الجزاء لهذه الأعمال .

وقد ذهبنا إلى « هرر » ثم « دسى » ثم « عروس » .

وأخيراً ذهبنا إلى « دريدوه » حيث افتتحنا مكتباً للقرآن والقراءة العربية .

واستطعنا أن نصمد أكثر من سنة ، وهيأنا بذلك أسباب الاستمرار ، وجعلنا الشعب يلتف حول هذا العمل ..

ثم عرفنا أنَّ الحكومة تسعى إلى تلفيق تهمة هى وجود علاقة ضارة بالبلاد بيننا وبين مصر ..

فحاطتنا بشبكة من الجواسيس ، وكان - لحسن الحظ - لنا من بينهم أصدقاء أنقذونا فى آخر لحظة ..

وكان الخيط الوحيد الذى أمسكت به الحكومة - لتبنى عليه حكمها - أنَّ كُلاً منا كان فى مصر مدة من الزمن ، وعاد ليواصل الكفاح فى الإجازة ، وهكذا بقينا مراقَبين مدة طويلة .

واستطعنا أخيراً الهرب ، ولم يكتشفوا ذلك إلا بعد وصولنا إلى السودان ، ذلك لأننا خرجنا فى أيام كانت أعياداً مسيحية متوالية ، وتلتها أعياد إسلامية، فانتهزنا هذه الفرصة للهرب .

وقد أخطروا السفارة الحبشية فى السودان للاتصال بحكومة السودان لإعادتنا. ومن حسن الحظ أننا عرفنا ذلك فى الوقت المناسب ووصلنا إلى مصر .

وكنا نعتقد أننا سنجد آذاناً مصغية ، وقلوباً رحيمة ، ورجالاً يفهمون قضيتنا.

لكننا أينما ولينا وجوهنا قوبلنا بفتور وقلة اكتراث ، حتى كدنا نشك فى أننا مسلمون أو أننا بين مسلمين ! .

وأخيراً طلبنا العون لكى نحيا فحسب .

طلبناه من كل هيئة تهتم بالشئون الإسلامية ، وفى مقدمتها المؤتمر الإسلامى الذى تركنا نتردد عليه أكثر من سبعة أشهر ، ثم قال لنا أخيراً : ليس لدينا عون نستطيع تقديمه لكم !

وعجبنا لماذا لم يصارحنا بهذه الحقيقة من أول الأمر ؟

إننا نأسف إذ نقول : لقد اكتشفنا أنه مؤتمر اسمى لا إسلامى ، وأنَّ قضايا المسلمين - ومن بينهم مسلمو الحبشة - آخر شىء يهتم له المؤتمر .

كنا نأمل أن يأخذ بيدنا ، ويوجهنا إلى ما فيه خيرنا وخير أمتنا .. ولكن هيهات .

والتحقنا بالأزهر ، فوجدنا فيه ما يحفظ علينا أنفسنا - أو بتعبير أدق - ما يقيم أودنا .

وما لهذا جئنا ، فإنَّ علينا واجبات كثيرة نريد أن ننهض كيما نحرِّر أمتنا ، ونصون عقيدتنا .

إنَّ « الأزهر » يعطينا ما يسد الرمق ، فمن أين نأتى بما يعيننا على إنجاح قضيتنا وإنقاذ إخوتنا ؟

إننا لم نأت طلبة علم فحسب ، بل جئنا ليرانا العالَم على حقيقتنا : مآسى تعرض نفسها فى صمت ، علّها تجد دمعة تترقرق لوطن منكوب وإسلام مستباح ، أو لسان يقول : قفوا هذه الجرائم فى الحبشة ، واحموا حرية العقائد ، واكفلوا حقوق الإنسان .

جئنا لنطالب « الأزهر » - وغير « الأزهر » من الهيئات الدينية - ليبعث بعوثاً علمية إلى المسلمين هناك ، المسلمين المحجوبين عن النور والعدل ، المتطلعين إلى الإنصاف والرحمة .

إننا نطالب المسلمين هنا بأداء هذا الحق إن كانت لديهم ذرَّة من الحمية الدينية أو الأخوة الإسلامية أو العاطفة الإنسانية ، ولو كلفهم ذلك تقديم شكوى إلى الأمم المتحدة « فرع حقوق الإنسان » .

وإذا كانت حرية التبشير مكفولة للجميع ، فمن حق « الأزهر » أو « المؤتمر الإسلامى » أن يطالبا بذلك أسوة بالآخرين .

ثم ما الذى يمنع أن تكون الروابط بين مسلمى الحبشة و « الأزهر » مثل الروابط بين الكنيسة الحبشية وأقباط مصر ؟!

إنَّ الحكومة المصرية لم تمنع تدخل البعثة التى قدمت أخيراً لحل المشاكل المعلّقة بين الكنيستين .

لماذا لا يطالب « الأزهر » - أو غيره - بحق النظر فى شئون المسلمين الأحباش؟

إننا نأمل أن نجد مَن يتبنى هذه القضايا ، ويبذل الجهد لإنجاحها ، وقد أودعنا صدوركم هذه الأمانة ، وعسى أن يوفقكم اللّه لحملها .

نرجوا أن تسمعوا شكوانا كل أذن ، وأن تلفتوا إليها كل قلب ، وأن تنهزوا لنشرها كل فرصة ، وألا تكفوا عن شغل الأذهان بها - وإنَّ ذلك دأبكم دائماً - لعل اللّه يكشف الغُمة ، ويُنير الطريق .

* * *

وليس لدىّ ما أقوله إلا أنْ يراجع المسئولين موقفهم من هذه الدولة الجائرة الكنود

وأن يُميطوا اللّثام عن سياستها العاجزة ضد الكثرة المسلمة المغلوبة على أمرها .

وأن يفضحوا النفاق الذى يبرز به البعض حين يتصل بنا كأنه صديق ، وهو مع الاستعمار ضالع ، ولأعداء العروبه عون ، وللإسلام وأهله خصم خبيث العداوة حقير الأسلوب .

إنّ كارثة المسلمين فى الحبشة يجب أن تطوف أنباءها العالم ، وأن تنكشف تفاصيلها للقريب والبعيد .

ولا بأس أن يُضيف المسلمون بها جديداً إلى معارفهم ، فهم وإن ألفوا من سورات التعصب ما ألفوا - ينبغى أن يتأملوا فى هذا الدرس الجديد ، وأن يقارنوا بين معاملة ومعاملة ، وسياسة وسياسة .

ولله عاقبة الأمور .

* * *

ليست الصليبية ولا الصهيونية ديانات

معروف أنه من تمام اعتقاد المسلم التصديق برسالتى موسى وعيسى عليهما السلام والإيمان بأنهما مثل « محمد » صلى الله عليه وآله وسلم فى التلقي عن الله وإبلاغ هداياته للخلق ، وأن توجيه أى انتقاص لقَدْر واحد من أولئك الأنبياء العظام يُعد خروجاً عن الإسلام وجحداً لكتابه ..

والمسلم - إذ يؤمن بموسى وعيسى - يعتقد أنَّ الوحى الذى نزل عليهما حق ، وأنَّ القرآن نزل مُصدِّقاً له ، كما يعتقد أنَّ الرجال الذين اتبعوهما هم عباد الله الصالحين ، وأنهم نصروا الله ورسوله ، واستحقوا على ذلك الجزاء الأوفى .

فالمسلم يرى أنه موصول الحبال بموسى وعيسى ، موثق الصلات بالرجلين الكبيرين وبغيرهما من المرسلين ، وأنه أحق بالنسبة إليهم من أولئك المزوِّرين الذين يزعمون الانتماء إليهم وهم - بما يفعلون - كاذبون ومكذّبون .

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

أجل .. إنَّ محمداً ومَن معه هم على الطريق العتيدة التى مضى فيها - من قبل إبراهيم وموسى وعيسى ..

أما اليهودية بعد ما تحولت صهيونية ، وأما النصرانية بعد ما تحولت صليبية، فقد انخلعتا من كل شعار يربطهما بأنبياء الله ، وينسبهما إلى السماء ..

وأحوال الفريقين الآن على النقيض التام من أحوال السَلَف الصالح الذى صحب موسى وعيسى ..

كان اليهود الأقدمون ضحايا الجبروت والاستعلاء ، وكانوا مستباحى الدماء والحُرمات .

---

(١) آل عمران : ٦٨

وكان فرعون ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ (١) .

فاتجهت جهود أنبياء الله إلى تحرير رقابهم واستنقاذهم من العذاب الهون .

فانظر إلى الأرقاء بعد ما أُعتقوا .

لقد تحولوا اليوم إلى فراعنة يعلون فى الأرض يستضعفون مَن وقع فى براثنهم .

أى أنَّ الرسالة التى بدأت باستنكار الفساد والعدوان قد حولها اليهود إلي أداة إفساد واعتداء ..

أما كان أولى بهم أن يتمسكوا بالعدل ويلتزموا الإنصاف .

وأما المسيحية فإنَّ أبرز خِلال رجالها الأولين الرقة واللُطف .

وقد وصف الله عيسى بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ (٢) .

واستخراج الرأفة والرحمة من قلوب الصليبيين الآن يشبه استخراج المياه من الصحراوات القاحلة .

إنَّ صناعات الموت ووسائل الفتك وأسباب المحن والرزايا ما تجود الآن فى مكان مثل ما تجود فى أقطار الغرب الصليبى .

وما ابتأست بلاد بدخول قوم فيها مثل ما ابتأست الأقطار « المتخلفة » بدخول الرواد والمكتشفين الغربيين ، لقد تحولت «الرأفة والرحمة .. إلى ..لعنة وهمجية » .

ونحن حين نستقرى أخبار « المستعمرين » والفاتحين الأوروبيين والأمريكيين نزداد يقيناً بأن القوم لا علاقة لهم بعيسى ولا بكتابه .

إنَّ البون بعيد بين وحى الله وما فى أيدى القوم الآن من تراث روحى مضطرب .

ولندع الصهيونية جانباً لنتأمل فى المسيحية ..

---

(١) القصص : ٤ (٢) الحديد : ٢٧

فإنَّ الصهيونية لا تكيد كيدها اليوم إلا وهى فى حماية دول « أوروبا » القوية أو على الأصح بتحريضها السافر .

تُرى ماذا دهى المسيحية حتى صادقت اليهود ، وخاصمت الإسلام ، وقررت إيذاء أهله وتحطيم آمالهم ؟

هل للانحراف الذى دحل على النصرانية أثر فى قسوتها على خصومها ورغبتها فى الاستئثار بالسلطان واجتياح المعارضين ؟

إننا نكاد نُجزم بأن ذلك هو السر الكامن وراء التعصب البالغ الذى عُرف به تاريخ القوم .

فقيام عقيدة ما بعيداً عن قواعد المنطق معناه رفض الجدل فى أساسها ، ومنع الفكر من التعرض لها ، وخلق جو لا يسمح بالعيش لغيرها .

وذلك فى نظرنا هو السبب الوحيد لسياسة الإكراه والتزمت والأثرة التى برزت فى تاريخ المسيحية كما لم تبرز فى تاريخ دين آخر .

ونحب أن ننقل هنا - دون أن نناقش - ما كتبه [1] الفيلسوف الفرنسى « هنرى دى لاكروا » فى شرح أُصول المسيحية وطرق سيرها إلى الضمائر والعقول .

قال : « ولننظر فى الاعتقاد المسيحى : إلٰه ينزل إلى الأرض ليفتدى الإنسان ، وإلٰه واحد فى ثلاثة أشخاص .. !

هذا الاعتقاد لا يماشى العقل ، ورجال اللاهوت أنفسهم يعلمون ذلك حق العلم ، والمؤلهة [2] أنفسهم يترددون بإزاء إلٰه كهذا مكون من ثلاثة أشخاص ، إلٰه له طبيعتان : طبيعة إلٰهية وطبيعة بَشرية .

---

(١) عن كتاب « من القديم إلى المواطن الحديث » ترجمة وتعليق الدكتور محمد مندور .

(٢) « المؤلهة » هم الذين يقولون بوجود الله وينكرون الوحى والرسالة ، ويمثلهم بفرنسا فى القرن الثامن عشر روسو وڤولتير ومونتسيكيو .

يترددون بإزاء كائن خالد صمد يصبح إنساناً فيألم كالإنسان ليفتدى خطايا البَشر .. !!

إنَّ فى المسيحية أنواعاً من المعتقدات العجيبة يلقى أرسخ المدافعين عنها أكبر الصعوبات فى تسويغها .

ومعنى ذلك أنَّ الاعتقاد بشئ غير عقلى قد تؤمن به أحياناً لأسباب عقلية ، وأحياناً أخرى لأسباب غريبة عن العقل .. !

ومن ثَمَّ فالإيمان الدينى لا يمكن أن يكون إيماناً عقلياً محضاً .

ومع ذلك يسعى هذا الإيمان إلى أن يكون عقلياً ! لماذا ؟

لأنه بدون مسوغ عقلى يمكن لأى اعتقاد أن يبدو شيئاً مشروعاً .

وإذا كنا نستطيع أن نؤمن معفين أنفسنا من فحص أدلة ذلك الإيمان ، فلماذا لا نؤمن عندئذ بكل الخرافات التى ترويها الأساطير القديمة ؟

ومن هنا وجب أن تكون لدينا أسباب معقولة لما نؤمن به ، وأن نبسطها للآخرين » ..

ثم يقول : « ولكنه إذا كانت الأسباب مسرفة الوفرة ، خرج الإيمان الدينى عن أن يكون قلبياً حقاً صادراً عن إلهام من الروح المقدسة .. !

وهنا الحيرة التى يقع فيها المسيحى فيما يتعلق بالإيمان » .

ونحن نقول : أى حيرة تُنتظر إذا كثرت الدلائل على صحة شئ ما ؟؟

لا حيرة أبداً . بل إنَّ النصرانية يعوذها كل الإعواز أن تُقيم كيانها الأدبى على أثارة من علم ..

ولذلك فهى تجنح إلى جعل الإيمان أمراً من أحوال القلوب فراراً من سطوة العقل عليها وهو يفند أصولها .

ومن ثَمَّ نراها تبنى دعايتها العامة وأسلوبها الخاص فى التربية على ما يلى :

١ - أزِحْ العوائق الفكرية أمام سير الإيمان ، وعوِّد نفسك الاستسلام للترهات ، واغض عما يضيق به عقلك فذلك تمهيد فعَّال لحُسن التدين .

٢ - لا تعوّل على قيمة العقل ، ولا تربط ثقتك بأحكامه ، فالعقل قاصر .

٣ - الإيمان منحة لا كسب ، أى أنّ الإنسان مهما اجتهد فمستقبله مرهون بعوامل خارجية هى الحاسمة فى مصيره .

وهاك ما يذكره فى تفسير هذه الأمور الثلاثة « هنرى لاكروا » . قال : « لكى ننفث شيئاً من الحياة فى هذا العرض النظرى ، دعنا نأخذ « بسكال » كمثل .

وهو قد حلّل الإيمان المسيحى تحليلاً بالغ العمق فقال بوجود ثلاث وسائل للإيمان المنشود هى :

« العقل ، والعادة ، والإلهام »

فالعادة وسيلة ما سميته بالإيمان الضمنى ، والعقل وسيلة الإيمان العقلى ، والإلهام فى نظر الباحث النفسى وسيلة الإيمان العاطفى .

للعُرف أو للعادة عند « بسكال » فضل كبير إذ يمحو العقبات من سبيل الإيمان ، فالرجل الذى يأخذ - قبل أن يؤمن - فى تأدية الشعائر كما يؤديها المؤمن يُعِد نفسه بعمله هذا للإيمان .

وذلك أولاً لسبب سلبى هو محوه لنوع من الحياة لا يتفق وطبيعة الإيمان .

وأنت إذا أسلمت نفسك للذات والشهوات لن تصل إلى الإيمان مهما أجهدت عقلك .

وعلى العكس من ذلك : عِشْ كما لو كنت مؤمناً ، وأرغم نفسك على ذلك النوع من الحياة ترى أنك قد حطمت العقبة الأساسية .

إننا بعمل ما يعمله المؤمن نصل أحياناً إلى أن نوحى لأنفسنا بالإيمان نفسه ، وهذه ملاحظة نفسية بالغة العمق .

ونحن نعلم أنه فى تصنع عاطفة ما بدء بالإحساس بها .

فإذا عملنا على التمكين لذلك الموقف وأخذنا فى تنمية البذرة لن نلبث أن نخلص من عملنا هذا بصورة تخطيطية صادقة لتلك العاطفة .

وكذلك الأمر فى الإيمان ، فالرجل الذي يرغم نفسه ، ويستبله ، فيأخذ من الماء المقدس يمكن أن يبدأ فى الإيمان بتصنع صادق ، ومن ثَمَّ يصبح فى النهاية وقد أحرز إيماناً قوياً .

وللعادة أثر آخر ، فهى تمكن للاعتقادات وتثبت فى النفس أعرق النتائج والحجج التى تصل إليها - بعد الجهد النظرى .

وليس هذا مبدأ آخر . وذلك لأننا لسنا الآن بإزاء إرغامنا لأجسامنا - وإنما نحن إزاء مؤمن اجتمعت لديه أسباب للإيمان ثم أتت العادة فثبتت فى نفسه أعرق النتائج التى استخلصها مما لديه من حجج ، وبذلك أعفته من وضعها باستمرار نصب عينيه .

والوسيلة الثانية هى العقل ، و « بسكال » [1] بلا ريب - لم يترك له إلا مجالاً ضيقاً ، وسوف تري لماذا فعل ذلك ، ومع هذا فإنه يستخدمه .

إنه يستخلص من الانتقادات التى يوجهها العقل لنفسه سبباً للإيمان .

وما هى العقبة الكبرى التى تعترض المسيحى ؟

أليست العقل الذى يناقش الدين ؟ !

---

(١) « بسكال » عالم الرياضيات والطبيعة : فيلسوف فرنسى شهير حدثت له حادثة بجوار جسر بُنِىَ على مقربة من باريس ومنذ ذلك الحين أخذت تتراءى له مشاهد هذيانية يرى فيها هوة إلى جانبه يكاد يسقط فيها .

فاتجه منذ ذلك الحين إلى الدين واعتزل فى دير « بودرويال » حيث أخذ نفسه بالتقشف والزهد ، وقد دافع عن مذهب « جنسينيوس » فى « خطاباته الريفية » وهاجم خصومه الشيوعيين أعنف هجوم ، وهو كاتب مفكر ذو عبقرية فذة .

ولقد مات قبل أن ينتهى من إتمام « دفاعه عن المسيحيين » فنشرت الأجزاء التى كتبها بعنوان « الأفكار » .

ولد سنة ١٦٢٣ ومات سنة ١٦٦٢ ، وآراؤه التى يبسطها المؤلف موجودة فى « الأفكار » .

لكن العقل بنقده لنفسه لن يلبث أن يعترف بوجود عدد كبير من الحقائق التى تتجاوزه ، فيعجز عن إدراكها ، وبذلك يُسلّم بأنّ الحقيقة المطلقة ليست فى الواقع فى متناوله .

فإذا صح ذلك فلماذا لا نُسلّم بأنّ الاعتقاد الذى يعدو العقل يمكن أن يكون صحيحاً ؟

و « بسكال » يحاول أن يُظهر أنّ اليقين نفسه ، وأنّ الوضوح نفسه فيهما شئ لا يمكن التدليل عليه ، ثم يقول :

« إننا نُسلّم بنوع من الجبر الداخلى الذى لا يمكن تعليله ، وهو أشبه ما يكون بالغريزة » ، ثم يقول بعد ذلك كله : « إنّ للقلب حججه التى لا يعرفها العقل».

قلب وغريزة ومبادئ ... !

وعالِم الهندسة هذا يزعم أنه يصل فى نهاية برهانه إلى أشياء من الوضوح بحيث لا تقبل برهاناً .

وهو يُسلّم بها بحافز شعورى لا بإيمان عقلى يمكن تبريره .

ومن ثَمّ فإنه لما كان القلب عند « بسكال » هو الذى يحس بوجود اللّه لا العقل ، فإن ذلك الإله الذى يدركه القلب يصبح إلهاً مشروعاً أمام العقل بحكم نقد ذلك العقل لنفسه ...

وهذا ليس معناه عدم وجود أسباب للإيمان كما يرى .. !

فهناك - مثلاً - معجزات « المسيح » وفيها يرى « بسكال » سبباً للإيمان .

ولكن العقل يقبل الشك فيها لما فيه من ضياء وظُلمة .

وفى ضيائه أحياناً من الاضطراب ما يمنعنا من أن نستسلم إليه طائعين .

ومن ثم يعجز بنفسه عن أن يحملنا على التسليم .

وإذن فأسباب الإيمان ليست حاسمة بالنسبة إلى المؤمن .

ووظيفة العقل الأساسية فى الإيمان العقلى ليست إلا فى نقده لنفسه .

وهذه الفكره قد استخدمها رجال الدين مرات كثيرة محاولين تحطيم العقل بالعقل نفسه وذلك خدمة للإيمان !

هل انتهيتَ من قراءة هذا الدفاع المتين عن الدين بعد انفصاله عن العقل ؟ إنَّ هذا الكلام المنمَّق المزوَّق اسمه فلسفة .

وأول تلك الفلسفة أن تتباله وتتغابى لتبلع النقائض المستعصية وتتعود الإيمان .

وثانيه أن تقتحم على العقل مكانه العتيد ، وتقول ما أنت ؟

وهنا مغالطة مكشوفة تضم ما يستعصى على العقل فهمه إلى جوار ما يُحكم جازماً باستحالته .

والبون بعيد .

فما يعجز العقل بطبيعته عن إدراكه والحكم فيه - لأنه وراء ما قلته - شئ غير ما يمكنه تصوره والبت فيه برأى حاسم .

واتهام العقل بالقصور فى المسائل الأخيرة لأنه عاجز فى المسائل الأولى كلام فارغ ، وما نظن « بسكال » إلا مخبولاً ساعة قاله .. ولكن هذا الخبل فلسفة دين !

ثم تجئ وسيلة أخري للإيمان .

والوسيلة الأخرى هى الإلهام ، والإلهام عند « بسكال » هو الشعور القلبى الذى يحمل الإنسان على أن يهب نفسه .

يهبها هبه تامة كما يفعل المؤلهون .

والإيمان أشبه ما يكون بالوله ، ولكن الإلهام أيضاً التفاتة إلٰهية ، إنه فيض من اللّه .

أقول : وهذا أسلوب فى الفهم والإقناع لا قِبَلَ لنا به .

وأخوف ما نخافه - بعد الزعم بأنَّ الايمان هبة عليا - أن يعتبر المحرومون من هذه الهبة أنجاساً تستأصل شأفتهم وتستباح حرياتهم وحقوقهم لأنَّ بركات السماء لم تحل بهم .

ويظهر أنَّ نظرة النصارى إلى معارضيهم فى قصة التثليث والصلب تأخذ هذه الوجة المعينة .

وهنا يقوم السيف مكان الحُجَّة ، ويقوم الإرهاب مكان الإقناع .

وتلجأ الكنيسة فى معاملة خصومها إلى الاضطهاد والمصادرة .

ومن وراء هذه السياسة شعور بأنَّ المعارضين قوم خلت قلوبهم من نفحات السماء وحلَّت مكانها أرواح الشياطين ، ولذلك ينبغى أن يُضربوا دون هوادة .

* * *

إنَّ الحياة الإنسانية سوف تمر بأدوار طويلة من الشقاء ما بقيت هذه الأفكار تسودها .

ونحن نعلم أنَّ الصليبية جرَّبت سياسة القوة والعنف أزمنة متعاقبة ، أو جرَّبت سياسة الختل والمداراة التى تسندها المدافع والقاذفات كما يحدث فى ذلك العصر .

فهل لها أن تجرِّب سياسة الأدب والملاينة ، واحترام العقل ، وقبول العيش إلى جوار مبادئ أخرى ؟

وسواء قبلت أم رفضت .. فإنَّ الإسلام لن يدع سبيلاً يبقى عليه حق العبادة إلا سار فيها .

فإن كانت السلم ، فبها ونعمت ، وإلا استقتل فى الذود عن حقيقته وحماه .

* * *